الباب الثالث

مستنقع الملاحدة

الفصل العاشر

ريتشـــارد دوكـنز
حادى الملاحدةُ الجُدد

- **هذا هو ريتشارد دوكنز**
  - ملحد هاوٍ سيئ الأدب
  - أهذا القزم يُقارَن ببرتراند رَسِل؟!
  - سفسطائى مبتدء، مَزَيِّف للحقائق
- **فلسفة دوكنز الإلحادية**
  - منهج دوكنز الفلسفى
  - التعارض - المماثلة - الاحتمالية
  - ملحد، أم شكاك، أم لا أدرىّ؟
  - منهج دوكنز الفلسفى فى الميزان
  - بعض جوانب الاتفاق
- **الإله فى فلسفة دوكنز**
  - الإله خلق الكون، فمن خلق الإله؟!
  - ذات الإله: مادى، معقد، متطور!
  - حقيقة الموجود الأزلى
  - صفات الإله
- **إله دوكنز «الاحتمالية والصدفة»**
  - يقبل كل شىء إلا الإله!
  - «الاحتمالية الرياضية» لا تعنى «الإمكانية الفعلية»
  - حقيقة الصدفة
- **خرافة صانع الساعات الأعمى**
  - برهان القِرَدة
  - الانتخاب التراكمى والتعقيد غير القابل للاختزال
  - الانتخاب الطبيعى التراكمى
  - مغالطات جوهرية
- **عالم دوكنز الأخلاقى**
  - الدارونية وراء أخلاق الإله وأنبيائه!!
  - الإناء ينضح بما فيه
  - من أين ينبغى أن نستمد أخلاقنا؟
  - تشابهت الأسماء واختلفت المسميات
- **القارئ الكريم**

«يحصل العديد من استدلالات دوكنز الفلسفية على درجة الرسوب
إذا طُرحت فى امتحانات الفلسفة فى المدارس الثانوية».

ألڤن بلانتنجا[1]

وَلت أيام الإلحاد الفلسفى المهذب، كما وَلَّى زمان الملاحدة الكبار أمثال ديفيد هيوم ونيتشه وبرتراند رَسِل. لقد تقهقر الاهتمام بالكيف لحساب الكم، وصار المهم هو **ارتفاع الصراخ** من خلال الإعلام والشبكات العنكبوتية وشبكات التواصل الاجتماعى. لقد صرنا نحيا فى زمن يطرح فيه الإلحاد نفسه فى الغرب على نواصى الطرقات، ويعلن صراحة عن عزمه على إزاحة الدين من الطريق. وقد حَذَت **طلائع الملاحدة فى الشرق** حذو روادهم فى الغرب، فبدأنا نسمع الهمهمات تأتى من هنا وهناك.

فى البابين السابقين، عرضنا القضايا الحيوية التى يشتد حولها الخلاف بين المؤمنين والملاحدة، ودحضنا المفاهيم والحجج الرئيسية للإلحاد الجديد.

وفى هذا الباب، نستكمل طرح الفكر الإلحادى، فنفرد هذا الفصل لاستكمال عرض وتحليل أفكار ومنهج كبير الملاحدة الجدد، **ريتشارد دوكنز**، من خلال كتاباته المشهورة. ثم نتعرض فى الفصل التالى لإضافات **شراذم دوكنز المشهورين**. ونختم الباب بفصل عن **الإلحاد فى بلادنا**. وأحسب أن هذا الطرح كاف لاستيفاء عرض الفكر الإلحادى الجديد ودحضه، ولإكساب القارئ مناعة ضد هذا الفكر.

(1) فيلسوف أمريكى كبير.

هذا هو ريتشارد دوكنز[1]

ملحد هاوٍ سيئ الأدب

اتباعًا للحكمة العربية «**وشهد شاهد من أهلها**»، نلقى الضوء على أسلوب ريتشارد دوكنز ومنهجه من خلال طرح ردود أفعال بعض الملاحدة وأنصار الدارونية تجاه كتابه الأخير «**وهم الإله**»:

يقول الفيلسوف الملحد مايكل روس[2]: «لقد جعلنى كتاب وهم الإله أشعر بتوتر وارتباك Embarrassed لكونى ملحدًا. فالكتاب الذى يعالج فى المقام الأول قضية الأخلاق، يتبنى **حملة صليبية لا أخلاقية، تتسم بالتكبر والعجرفة**. فدوكنز لا يتحدث كفيلسوف يعالج الأدلة ليصل إلى استنتاجات منطقية، لكن كواعظ أصولى يرسم طريق الخلاص ويهدد بالطرد من الرحمة». ثم يطرح روس تساؤله: «إذا كان الإله غير موجود، فلم هذا التطرف الشديد ضد الدين؟!».

ويفيض الكيل بالفيلسوف الملحد توماس ناجل[3] بسبب أسلوب دوكنز فى الحديث عن الإله، فيقول: «يهدف دوكنز فى كتابه إلى إنكار أن الدين هو مصدر آداب السلوك Etiquette التى تسود الحضارة المعاصرة، وقد أخذ يكرر هذا الإنكار **بطريقة كريهة ومقرفة** Offensive قدر استطاعته».

ويقول عالم الوراثة التطورى هـ. ألين أور[4]: «بالرغم من إعجابى السابق بنشاط دوكنز

(1) Richard Dawkins: بريطانى وُلد فى نيروبى بكينيا عام 1941، يعيش الآن فى أكسفورد. وهو بيولوجى، كان يشغل منصب أستاذ تبسيط العلوم فى جامعة أكسفورد. وصل إلى الشهرة من خلال كتابه «الجين الأنانى The Selfish Gene» الذى صدر عام 1976، وعرض فيه مفهومه للتطور من خلال دور الجينات. وهو من المعارضين لمفهوم الخلق الخاص ومفهوم التصميم الذكى كما ظهر فى كتابه «صانع الساعات الأعمى ـ The Blind Watch Maker». وفى عام 2006 أصدر كتاب «وهم الإله The God Delusion» الذى ينكر فيه وجود أى قوى غيبية، وينظر إلى الإيمان باعتباره من الضلالات والأوهام، ويُعتبر هذا الكتاب أشهر كتبه الآن.

(2) Michael Ruse: إنجليزى، فيلسوف العلوم المتخصص فى فلسفة البيولوجيا. ولد عام 1940.

(3) Thomas Nagel: أستاذ الفلسفة والقانون بالولايات المتحدة، مهتم بفلسفة العقل والأخلاق والسياسة. ولد فى صربيا عام 1937.

(4) H.Allen orr: أستاذ البيولوجيا المهتم بالوراثة، بجامعة روشستر بالولايات المتحدة.

إلا أنه قد **آن الأوان لنفترق**، إن كتابه «وهم الإله» سيئ للغاية. وبالرغم من أننى وصفت دوكنز قبلًا بأنه ملحد محترف، فإننى بعد قراءة كتابه الأخير أجزم أنه **مجرد ملحد هاوٍ**، فإنه لم يقدم فى الكتاب أى نقد موضوعى للدين بالرغم من إنفاقه مئات الصفحات فى الهجوم على الإله.

هكذا تخلى الكثيرون من أنصار دوكنز عنه بعد أن **مارس غروره بتلقائية شـديدة** فى كتابه الأخير، **وملأه ببذاءات كثيرة**، منها:

- ما أن يتصفح المؤمنون كتابى فإنهم **سيصبحون ملاحدة** قبل أن يضعوه جانبًا[1].
- لقد تشبعت أدمغة المؤمنين بأفكارهم بحيث **لا تستجيب للدليل والبرهان**، تمامًا كما تتخلل الصبغة النسيج. وقد تكونت هذه المقاومة تدريجيًا عبر سنوات طويلة من التلقين منذ الطفولة[2].
- عندما يعانى شخص أوهامًا نصفه بالجنون أما عندما يعانى مجموعة من الناس من **الأوهام** فإننا **نعتبرهم متدينين**[3].
- إن ذوى التوجه الدينى يعانون **العجز عن التفرقة** بين ما هو حقيقة وما يريدون أن يبدو كحقيقة[4].
- **لا تجد حضارة** تتسم بتضييع الوقت والمال، والطقوس العدائية، والأفكار المنافية للحقيقة، والأوهام المعوقة للإنتاج قدر ما تجد فى الأمم المتدينة[5].
- يعانى المسيحيون أصحاب الذكاء الأقل من المتوسط من **إحساس مزمن بالذنب**، يجعلهم فى حالة صحية متدهورة يصعب الشفاء منها[6].

وقبـل ذلـك كله، يفتضح موقف دوكنز العدائى من الإله من عنـوان كتابه، الذى ينكر فيه وجوده ويصف فيه مخالفيه بأنهم واهمون.

ويُشَخِّص سكوت هان[7] سبب ما ينضح به الكتاب من تدنٍ أخلاقى قائلًا: إن الكتاب **لاذع جـارح ملىء بالغضب**، ويُعَد سـقطة مخجلة لدوكنز، ولا يُصنَّف كعمـل فكرى موضوعى. إنك تشعر وأنت تقرأه أنك أمام محاولة يائسة من **شخص يعصف به الضيق**؛ لأنه لم يستطع التخلص

(1) The God Delusion, P.4

(2) The God Delusion, P.5

(3) The God Delusion, P.5

(4) The God Delusion. P, 108

(5) The God Delusion. P, 166

(6) The God Delusion. P, 167

(7) Scott Hahn: مفكر أمريكى مهتم بالديانات. ولد عام 1955.

مـن معارضيه الذين لا يزالون يملئون السـاحة. إن الكتاب يبدو كهزيان شـخص ملأه الغرور والزهو بعد أن أفرط فى شرب الخمر، فأخذ يبعثر سبابه الحاقد على من لا يشاركونه الرأى.

لذلـك كله يحذر الفيلسـوف المتدين ألڤن بلانتنجا القارئ لكتـاب وهم الإله أن ينظر إليه باعتباره عملًا عقلانيًّا، فالكتاب ينوء بقدر **يثير الدهشـة من اللاموضوعية والإهانة والشـتيمة والسخرية والاستهزاء**.

سفسطائى مبتدء، مُزَيِّف للحقائق

بالإضافة لأسـلوبه السـاخر المتهكم المتدنى، يلجأ دوكنز إلى **المنهج السفسـطائى**[1] ليثبت وجهـة نظره، بغض النظـر عن التماس الحقيقة، فيقـع فى أخطاء منهجيـة ومغالطات منطقية، ولنضرب على ذلك بعض الأمثلة، ليس على سبيل الحصر ولكن كنماذج لما ننسبه إليه.

1) مـن حيل المنهج السفسـطائى أن **يطرح المُحـاور النتيجة التى يطمـح فى الوصول إليها كمقدمـة ثابتـة دون برهـان**[2]. انظـر إليه وهـو يقول: «لا أظـن أن ملحـدًا واحدًا فى العـالم يمكن أن يدمر مكة أو كنيسـة نوتردام أو معابد كيوتـو أو تماثيل بوذا فى باميان بأفغانستان[3]. ألم يسمع دوكنز عن عشرات الآلاف من المساجد والكنائس التى دمرها النظام الملحد فى الاتحاد السـوڤييتى، بالإضافة إلى المجـازر التى ذهب ضحيتها الملايين من المسـلمين والمسـيحيين[4]. إن هذا الخطأ المنهجى فى تقديم النتيجة المرجوة كمقدمة ثابتة يعكس جهلًا كبيرًا أو تزييفًا متعمدًا للتاريخ.

2) ومن السـقطات العلمية لدوكنز **موقفه من قضيـة: المعلومات أم المادة أولًا؟** فدوكنز يتبنى (كغيره من الماديين) أن **المعلومات يمكن أن تتراكم فى المادة تلقائيًّا**. و يرفض دين كينيون[5] البيولوجـى الفيزيائى الكبير هذا الرأى، قائلاً: «كلـما ازدادت معارفنا عن كيمياء الحياة،

---

(1) **السفسـطائية**: بغض النظـر عـن أصلها التاريخى، أصبحت تعـنى صرف الذهن وتمويه الحقائـق الصحيحة والمقبولة للمنطق، وتضليل الخصم عن الوجهة الصحيحة فى التفكير.

(2) هذه مغالطة منطقية معروفة باسم Petitio Principii

(3) The God Delusion, P. 249

(4) تحدثنا فى الفصل السابق عن إغفال دوكنز لهذه الحقائق.

(5) Dean Kenyon: أستاذ البيولوجيا بجامعة سان فرانسسكو، من أنصار حركة التصميم الذكى.

خاصة فى مجال البيولوجيا الجزيئية، كلما قل تقبلنا للتفسيرات الفيزيائية والكيميائية لأصل الحياة. إن العلم الحديث يخبرنا بأن **المعلومات التى يحملها الدنا لا بد أن يكون أصلها مصدر ذكى**، ما هو؟ هذا خارج نطاق العلم، و ينبغى أن يُترك للدين والفلسفة».

كذلك يخبرنا آلان ساندج[1] (أعلم البشر بالكون!) أن الكون والحياة شديدا التعقيد، **أعقد من أن يُنسب ما فيهما من معلومات إلى الصدفة فقط**.

3) عندما وجه أحدهم سؤالًا إلى دوكنز عن **الأمور الذى يعتقد أنها صواب بالرغم من أنه لا يملك دليلًا عليها**، أجاب دوكنز : إنى «**أعتقد**»أن الكون نشأ تلقائيًّا من العدم، وأن الحياة وجود مادى، وأن العقل البشرى من نتاج الانتخاب الطبيعى كما وصفه دارون. لقد انطلق دوكنز فى كل هذه القضايا الجوهرية من «**الاعتقاد**» بدون دليل علمى أو فلسفى.

4) من سقطات دوكنز الكبيرة، أنه **حمل مقولات أينشتين حول «الإله»** على أنه يقصد بها «**الطبيعة**»، كما يصر دائمًا على أن يَنسب أينشتين إلى الإلحاد أو إلى وحدة الوجود[2] pantheism. هذا فى الوقت الذى يؤكد فيه أينشتين إيمانه بوجود **عقل حكيم هو المنشئ والمدبر لقوانين الطبيعة**. كذلك يؤمن الكثيرون من **علماء الفيزياء الكبار المعاصرين** أمثال هيزنبرج وبلانك بما يؤمن به أينشتين، ولكن دوكنز ينفى عنهم ذلك الإيمان، و يُصر على أن يضمهم إلى زُمرَة الملحدين الوضعيين الذين يؤمنون بأن «ما لا يمكن رصده لا وجود له».

5) يوجه الفيزيائى الكبير جون بارو[3] نقده الساخر لدوكنز، قائلاً له: إن ما تعانيه من مشاكل مع الدين يرجع إلى أنك لست عالِمًا حقيقيًّا، **فأنت من البيولوجيين ولست من الفيزيائيين**[4]!، لذلك فأنت تعجز عن تصور حجم ما فى الوجود والحياة من تعقيد. و يضيف

(1) Allan Sandage: (1926 - 2010)، عالم الفلك الأمريكى الشهير.

(2) **وحدة الوجود**: مذهب فلسفى يرى أن الإله والمخلوقات شىء واحد، وأن العالم هو صورة الإله، ومن ثَمَّ فلا موجود إلا الإله. ولا يرى القائلون بوحدة الوجود أن العالم من خلق الإله، بل يقولون: إن العالم هو الإله و إن الإله هو العالم.

(3) جون بارو John Parow : أستاذ الفيزياء بجامعة Memorial بكندا.

(4) يرى الفيزيائيون أن البيولوجيا علم ينبثق من تاريخ الكائنات الحية، لذلك يضعونه فى منزلة أدنى من العلوم الرياضية والتجريبية.

جـون بارو موجهًا نقده اللاذع لدوكنز: إنك ما زلت **محكومًا بعقدة البيولوجيين التطوريين** فى القرن التاسـع عشر، ورغبتهم فى إثبات وجهة نظرهم بأى ثمن، ولو على **حساب الحقيقة**، ولا شك أن لَىَّ الحقائق لا يُعين كثيرًا أو قليلًا فى فهم القوانين التى تحكم الكون.

أهذا القزم يُقارَن ببرتراند رَسِل؟!

يُـرَوِّج البعض أن الفيلسـوف الكبير **برتراند رَسِـل** هو **الأب الروحـى** لدوكنز؛ باعتبار أن رَسِـل معارض قوى للأديان السـماوية، وأنه يُطَعِّم معارضته بكثير من السـخرية والتلميحات والمبالغة، إلا أن **هناك اختلافًا شاسعًا بين الرجلين**.

تخـبرنـا كاترين تيت Katharine Tait ابنـة رَسِـل فى كتابـها «أبى، برتراند رَسِـل My father, Bertrand Russell» بـأن والدهـا كان يشـعر دائمًـا بوجود **مكان شـاغر فى عقله وفى قلبه**، مكان كان يشغله الرب عندما كان رَسِل صبيًّا، ثم أصبح خاويًا ولم يعثر على شىء يملؤه. وتقول كاترين إن والدها كان يشـعر دائمًا **أن جوهر الإنسـان لا ينتمى إلى هذا العالم المادى**، وأنه أخذ منذ بداياته الفلسفية وطوال حياته **يبحث عن الإله باهتمام ومثابرة**.

وكـما يحدث مع المفكرين الكبـار، اصطدم برتراند رَسِـل (كما تخبرنا ابنتـه) بالعديد من **المسـيحيين المتعصبين والكئيبين**، الذين يعرضون الدين بأسـلوب يُذهب بسماحة العلاقة بين الله والإنسـان، وكذلك بين الإنسـان والإنسـان، كما يُذهب ببهجة الحياة، مما جعله **ينفر من الدين بالكلية**، ووصل الأمر إلى أنها فشلت تمامًا فى أن تدخل مع والدها فى أى حوار دينى.

أيـن هذه **المعاناة داخل نفس برتراند رَسِـل مـن أجل البحث عن الحقيقة** مـن العَمَاء الذى يعانيه ريتشارد دوكنز.

كذلك فات دوكنز أن مَثَلَه الأعلى الـمُـدَّعَى، برتراند رَسِل، قد وصف نفسه بأنه يتبنى (أو يُنشئ) مذهبًا فلسفيًّا جديدًا كل بضع سنوات، وهذا دأب معظم الفلاسفة الكبار مثل أنتونى فلو.

ويقـارن دوكنز بـين برتراند رَسِـل باعتباره فيلسـوفًا ملحدًا يتحرى أمانـة الفكر، وبين الفيلسوف أنتونى فلو، فيقول إن فلو أعلن ارتداده عن الإلحاد بعد أن كَبُر فى السن، وإنه أعلن «أن هناك إلـهًا» **حتى يملأ الإعلام ضجيجًا حوله**، بينما كان برتراند رَسِل فيلسوفًا كبيرًا حصل على جائزة نوبل. هل لاحظت **السـخرية والمقابلة** بين وصف فلو بأنه «**كَبُر فى السـن**» وبين

وصف رَسِل بأنه «**فيلسوف كبير**»؟ لقد فات دوكنز أن المفكرين الحقيقيين يُقَيِّمون الحجج والبراهين دون النظر إلى عِرْق أو جنس أو عُمْر. هذا هو منهج دوكنز وسلوكه الأخلاقى إذا **عجز عن تفنيد ما يقال؛ يترك الموضوعية ويهاجم الشخص ببذاءة**.

ونختم حديثنا عن حقيقة دوكنز بأنه ينتمى إلى مجموعة من الكتاب العلميين أمثال كارل ساجان[1] و إسحق عظيموف[2] الذين لا يكتفون بأن يكونوا علماء وكُتَّابًا، بل يعتبرون أنفسهم **كهنة العلم** فيرتدون مسوح الوعاظ، و يلقون على الناس الخطب باعتبارهم **مبعوثى العناية العقلية**، الذين **يحددون ما يُسمح بأن نؤمن به من الغيبيات، و يستنزلون على مخالفيهم اللعنات.**

فلسفة دوكنز الإلحادية

يقول الفيلسوف ألڤن بلانتنجا فى عرضه لكتاب وهم الإله؛ **يحصل** العديد من استدلالات دوكنز الفلسفية **على درجة الرسوب** إذا طُرحت فى امتحانات الفلسفة فى المدارس الثانوية. كذلك يصف فيلسوف الإلحاد توماس ناجل محاولات دوكنز الفلسفية بأنها **محاولات ضعيفة لهاوٍ مبتدئ**.

منهج دوكنز الفلسفى

تقوم فلسفة دوكنز الإلحادية على مثلث من المفاهيم الخاطئة، يمكن التعبير عنه بثلاث كلمات:

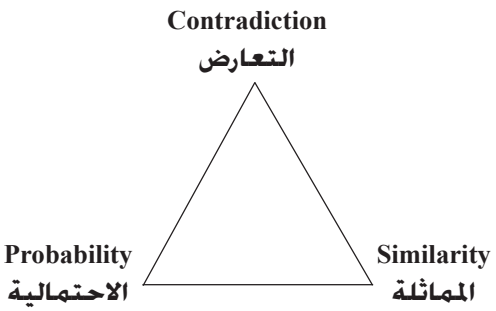

(1) Carl Sagan: وُلد بالولايات المتحدة (1934 - 1996)، وهو عالم الفلك والكونيات الشهير، من المهتمين بالحياة خارج كوكبنا، عمل مستشارًا لوكالة أبحاث الفضاء الأمريكية NASA. من المهتمين بتبسيط العلوم، والمُعد للبرنامج التليفزيونى «الكون Cosmos, A personal Voyage» الذى يُعتبر أكثر البرامج التليفزيونية مشاهدة فى التاريخ؛ إذ شاهده أكثر من 600 مليون إنسان فى 60 دولة.

(2) Isaac Asimov: (1920–1992)، أستاذ فى الكيمياء الحيوية، روسى المولد أمريكى الجنسية. له حوالى 500 كتاب فى تبسيط العلوم وفى الخيال العلمى.

التعارض: إما العلم وإما الإله!

يمثل هذا المفهوم قاسمًا مشتركًا فى الإلحاد المعاصر. فما أن قامت الثورة العلمية فى أوروبا بطرح التفسيرات الآلية لمختلف **الظواهر الفيزيائية** حتى بدأ الناس ينظرون إلى هذه التفسيرات كبدائل للتفسيرات الغائية التى تعكس إرادة الله ومشيئته. وكلما توصل العلم إلى تفسير لإحدى الظواهر الطبيعية، انتقص ذلك من رصيد الألوهية وأضاف لرصيد العلم. لقد تناسى الناس أن **الجمع بين التفسير الغائى والتفسير الآلى هو طبيعة الأشياء**، وصارت القاعدة السائدة فى الغرب أن **ما يمكن تفسيره بالعلم لا يحتاج لإله**. وأصبح هذا اللبس هو السبب الرئيس وراء نشأة الإلحاد المعاصر.

وبعد دارون امتد نفس المنظور إلى **علم البيولوجيا، فصار التطور بالانتخاب الطبيعى من بين طفرات عشوائية هو البديل عن الإله فى خلق الكائنات الحية**. وقد عبر دوكنز عن ذلك المفهوم بقوله: «إذا كان التطور يستطيع تفسير ما يبدو عليه عالم الأحياء من تصميم، فلا ينبغى إرجاع ذلك إلى مصدر ذكى». إن ذلك يعنى أن ما يمكن تفسيره بالتطور لا يحتاج لإله، أى أن **التطور يعنى الإلحاد**. ويمكن صياغة هذا الطرح لدوكنز فى مقدمتين ونتيجة:

المقدمة الأولى: التطور البيولوجى قادر على تفسير كل ما فى عالم الأحياء من تعقيد.

المقدمة الثانية: التطور البيولوجى لا ينسجم مع وجود الإله.

إذًا ليس هناك إله.

المشكلة أن دوكنز يعتبر أن العلم قد أثبت المقدمة الأولى، وأن المقدمة الثانية بديهية. والحقيقة أن كلتا المقدمتين خطأ! فالكثيرون من التطوريين يقرون بأن التطور **يعجز عن تفسير العقل البشرى**[1]، ويؤكد فرانسيس كولنز خطأ المقدمة الثانية بقوله: **من الذى يحجر على الإله فى أن يستخدم آلية التطور فى الخلق**.

يا الله... أإلى هذا الحد يبلغ السفه بدوكنز؟! **فيبنى منهجه الإلحادى كله على مقدمتين خاطئتين؟!**

(1) من هؤلاء ألفريد والاس نظير دارون.

المماثلة: الإله السوبرمان!

يتعامل دوكنز مع الإله باعتباره «**سوبرمان**»، **يتسم بكل ما يتسم به الإنسان من صفات**، فيفرض على الإله تصوراته البشرية، لكن على مستوى أكبر!

تجربة الدعاء

من أجل أن نفهم عنصر «المماثلة» فى منهج دوكنز الفلسفى فلنتأمل تلك التجربة العلمية! التى أجراها ونشرها فى كتابه وهم الإله (ص 61 - ص 66)، وأسماها **تجربة الدعاء** Prayer Experiment.

أحضر دوكنز فريقين من المرضى، وطلب من مجموعة من الأشخاص الدعاء للإله بأن يشفى أفراد أحد الفريقين، وتابع الحالة الصحية لجميع المرضى. لاحظ دوكنز أن الدعاء لم يحقق للمرضى أى تحسن يفوق مرضى الفريق الآخر. لقد استنتج دوكنز من ذلك أن ليس هناك إله، إذ **لو كان هناك إله «فلا بد» أنه كان سيستجيب للدعاء! بس خلاص، هاهاها**، لا تظن أنها نكتة، بل تجربة أجراها دوكنز تحت شروط علمية دقيقة.

قد تصلح هذه التجربة **لاختبار أداء الكمبيوتر**، الذى ينبغى أن ينفذ ما نلقى عليه من تعليمات، **لكنها لا تصلح لاختبار وجود الإله من عدمه**. ففى التجربة وقع دوكنز فى خطأين منهجيين كبيرين ينزعان عنها كل حجية:

الخطأ الأول؛ لقد خلط دوكنز بين **العلاقة السببية الحتمية** (مثل أن رفع درجة حرارة الماء إلى 100°م يؤدى إلى الغليان) وبين **العلاقة السببية اللاحتمية** (الدعاء تتبعه الاستجابة). إن دوكنز يتعامل مع الإله **باعتباره سببًا طبيعيًّا يخضع للقوانين وليس باعتباره إلهًا حرًا** هو مصدر حرية الإرادة التى يتمتع بها الإنسان. إن دوكنز يُلزم الإله (إن كان موجودًا) أن يستجيب للدعاء، وإلا فإنه غير موجود!

والخطأ الثانى، أن التجربة لا تختبر وجود الإله، لكن **تختبر إحدى صفاته**؛ وهى إن كان خَيِّرًا أم لا، كما تفرض عليه مفهومًا معينًا للخير؛ وهو أن يستجيب لكل من يسأله ولكل ما يُسأل.

وإذا تأملنا استجابة الإله الخَيِّر للدعاء، نجد أن **الخير مستويات متعددة**. فماذا عن

الديكتاتور شـديد البطش الذى أصيب بمرض جعله يتوقف لحظات ليراجع سلوكه و يفكر فى مصيره؟ أليس من الأفضل له ولنا ألا يستجيب الإله فورًا لدعائه بالشفاء. كذلك يعرف **كل أب وكل أم** أن ليس من الحكمة الاستجابة لكل طلبات أبنائهم، بل قد لا تكون الاستجابة فى بعض الأحوال فى صالح الأبناء. إن الخير الأعم كما نفهمه عن الإله العظيم هو **تحقيق التوازن الدقيق داخل المنظومة المتكاملة**، و إن بدا ذلك ضارًا فى بعض جزئياتها[1].

وماذا لو دعى كل البشر واستجاب لهم الإله جميعًا فحصلوا على أفضل الصفات البشرية، ماذا عن **آلية الانتخاب الطبيعى**، التى تختار الأفضل من تلك الصفات؟ لا شك أنها ستتعطل.

وماذا لو شَفَى الإله عند الدعاء جميع مرضى تجربة دوكنز، هل سيقر دوكنز بالإله الشافى؟ أم سيعتبر أن **الشفاء مجرد حظ متكرر**؟ أم سيفترض أن هناك **طاقة مادية** صدرت من الدعاء وأدت إلى الشفاء؟ أم سيتوقع أن **العلم سيكتشف لاحقًا** تفسيرًا لذلك؟ أو...

بماذا يشعر الخفاش؟

لتجسيد ما فى مفهوم المماثلة من عَوَار ولبس، وما فى تجربة الدعاء من خطأ، نقف مع البحث الذى نشره الفيلسوف الملحد توماس ناجل بعنوان: **كيف تبدو الأمور لو أصبح الإنسان خفاشًا**[2]؟!. ما المقصود بهذا البحث الذى يبدو عنوانه غريبًا فى الوهلة الأولى؟

يبصر الإنسان وجود الأشياء وصفاتها بعينيه من خلال ما يقع عليهما من **ضوء**، أما الخفاش فيدرك ما حوله من خلال عملية رادارية تعتمد على سقوط **موجات فوق صوتية** على الأشياء ثم ارتدادها ليستقبلها الخفاش بأذنيه. و إذا كان كلٌ من الإنسان والخفاش يدرك الأشياء التى فى مواجهته، فإن ما **يدركه كل منهما يختلف كثيرًا عما يدركه الآخر، كما تختلف مشاعر كل منهما تجاه ما يدركه**. و يعلق ناجل ساخرًا: من أجل أن **ندرك مشاعر الخفاش**، علينا أن نتقبل أن تكون لنا أغشية فى أذرعتنا كالجناحين، وأن نكونَ ضعيفى الإبصار ندرك الأشياء باستخدام جهاز السونار، نطير فى الليل لنصطاد الحشرات و فى النهار نتعلق من أقدامنا مقلوبين فى كهوف مظلمة. إن مجرد ارتدائنا لبدلة الرجل الخفاش غير كاف لأن ندرك مشاعر

---

(1) من أمثلة ذلك الحديث الصحيح لرسول الله ﷺ: أَتَتِ امْرَأَةٌ سَوْدَاءُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: إِنِّي أُصْرَعُ، وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللهَ لِي. قَالَ: **«إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُعَافِيَكِ»**. فَقَالَتْ: أَصْبِرُ. وقَالَتْ: إِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللهَ أَنْ لَا أَتَكَشَّفَ، فَدَعَا لَهَا.

(2) عنوان البحث الأصلى What is it like to be a bat ?

وقد صار البحث من البحوث المهمة فى تاريخ الفلسفة، واستدل به دوكنز فى كتابه صانع الساعات الأعمى ص 33.

الخفـاش. يبين هذا المثال أن **هنـاك فرقًا كبيرًا بين أن تقوم بنفـس الوظيفة (إدراك ما حولك) وبين أن تحصل على نفس الخبرة والشعور**[1].

وانطلاقًـا من مثال الخفاش نقول: **إن إدراك الإنسـان لمشـاعر الإلوهيـة وكيف ينظر الإله إلى الأمور أمر مسـتحيل**، لا نحصل عليه بتصور أننـا قد صرنا أقو ياء كهرقل، أو بتصور الإله كإنسـان ضخم كالذى رسـمه مايكل أنجلو على سـقف الكنيسة السسـتينية، إنك لا تستطيع أن تتصـور كيف تبدو الأمور للإله المطلق الأبدى الأزلى الذى لا تحكمه الأسـباب والموجود خارج الزمان وخارج المكان.

الاحتمالية: ربما نعم وربما لا!

يرى دوكنز أنه يستحيل أن نثبت أو ننفى بيقين ملايين الأشياء التى يحلم بها الخيال الخصب لكل إنسـان؛ كبراد الشاى الميكروسـكوبى الذى يدور فى الفضاء[2]، أو العفاريت التى تعيش فى الحديقـة، أو الوحـش الطائر المصنوع من المكرونة الأسـباجتى، أو الإلـه! أو...، ومن ثم ينبغى ألا نشـغل أنفسنا بمحاولة إثبات أو نفى وجود هذه الأشياء، بل يجب أن **نركز على معرفة ما إذا كان وجودها «محتملًا» أم لا**[3].

و يـترك دوكنز براد الشـاى والعفاريت ووحش الأسـباجتى باعتبارهـا أوهامًا غير مهمة، و يركـز على **وهم الإله**! لعدة أسـباب؛ أهمهـا أن الكثير من ظواهر الكون والحياة والإنسـان **«تخدعنـا» بأن تبدو كأنها مُصَمَّمَة** ومن ثم تُغـرى الكثيرين بالقول أن وراءها إلهًا، فيضيعون أعمارهـم فيما لا طائـل من ورائه! كذلك فإن الديانات تتسـبب فى مصائـب رهيبة للبشرية! وأخيرًا لأن كونًا فيه إله يختلف دون شك عن كون ليس فيه إله[4].

ولبيـان عبـث مفهوم الاحتماليـة، تأمل معى هـذا الحـوار: فى إحدى المناظـرات[5]، أخبر

(1) هذا البحث شديد الدلالة، وسنستشهد به مع مواضع أخرى.

(2) ضرب هذا المثال برتراند رَسِـل، و يقصد أنك لا تسـتطيع أن تنفى وجود براد شاى ميكروسكوبى الحجم يدور حول الشمس فى مدار بين الأرض والمريخ، وذلك للعجز عن رصد موجود فضائى بهذا الحجم الدقيق.

(3) The God Delusion, P. 51 -54.

(4) The God Delusion., P.31,55,139.

(5) مناظرة جرت فى ولاية آلاباما.

الفيلسوف الرياضى جون لينوكس الملحد دوكنز أن **سيرجون مادوكس**[1] كان يرفض الإقرار بأن للكون بداية، لئلا يدعم رأى المتدينين بالإله الخالق! لكن عندما تتابعت الأدلة على صحة نظرية الانفجار الكونى الأعظم أعلن مادوكس أنه صار يجد عذرًا قويًّا للقائلين بإله خالق أنشأ الكون من عدم. عندها مارس دوكنز سفسطته وقال: إذا كان هناك احتمالان، أن يكون للكون بداية أو يكون قديمًا، فإن لدى المتدينين فرصة 50 % أن يكونوا على صواب، و50 % أن يكونوا مخطئين مثلهم مثل الملاحدة تمامًا!!

ياالله، ما كل هذه اللاموضوعية واللاعلمية. فى مثل هذا الموقف لا ينبغى أن نخضع لمفهوم **الاحتمالية**، بل **المهم هو مدى صحة الشواهد على أن للكون بداية**. ما أشبه موقف دوكنز بطبيب دُعى لمناظرة إنسان تُوفى، فقال لأهله: هناك احتمال 50 % أن يكون ميتًا و50 % أن يكون حيًّا، ومن ثم ينبغى عدم دفنه! أليس المنهج الصحيح أن **يبحث الطبيب عن الشواهد المؤكدة للوفاة؟**

ولتأكيد عنصر الاحتمالية، يمارس دوكنز هوايته فى الخطابة (دون أن يقدم أى دليل «حقيقى» كعادته) فيقول: «حتى منتصف القرن التاسع عشر (ما قبل دارون) كان كل شخص عاقل يعتقد أن هناك ذكاءً فائقًا صمم وخلق الكون وكل ما فيه، بما فى ذلك الإنسان، أما بعد دارون فيمكن إرجاع ما نرصده من تصميم ظاهر إلى التطور الأعمى، ومن ثم **تراجعت احتمالية وجود الإله بقدر كبير**».

إن عنصر الاحتمالية يضع دوكنز فى موقف شديد الحرج، فهو يرى أن إثبات أو نفى وجود الإله **قضية شديدة الأهمية**، وفى نفس الوقت يرى أنه **يستحيل علميًّا وفلسفيًّا** تحقيق هذا الإثبات أو النفى!! إن دوكنز بذلك يُميِّع قضية الألوهية تمامًا، **ويحولها ـ على أفضل الأحوال ـ إلى احتمالية**: الأرجح أن الإله موجود أو الأرجح أن الإله غير موجود!!

والمدهش أن دوكنز يستخدم مفهوم الاحتمالية **استخدامًا معاكسًا**! فإذا كان يطرح مفهوم «الاحتمالية» حتى «**يشككك**» فى أمر عليه أدلة علمية وعقلية، فإنه يستعمل نفس المفهوم حتى «**يرجح**» وقوع ما يستحيل فعليًّا حدوثه!! ومن ثم فهو يعتبر أن **كل ما هو ليس بمستحيل**

(1) Sir John Maddox رئيس تحرير مجلة Nature

مطلق فإنه «ممكن» الحدوث. هنا يقع دوكنز فى خطأ فاحش، وهو الخلط بين «المحتمل رياضيًّا» وبين «الممكن واقعيًّا»، وسنتعرض للفرق بينهما بعد قليل.

ملحد، أَم شكاك، أَم لا أَدْرى؟

وضع دوكنز فى كتابه وهم الإله **تدريجًا** Scale[1] من "1" إلى "7"، ينتظم فيه الناس تبعًا لمستويات إيمانهم بالإله، فأصحاب الإيمان المطلق يحصلون على "1"، وأصحاب الإنكار التام يحصلون على "7". ويصف دوكنز نفسه بأنه يقف عند الدرجة 6.9. وكرر دوكنز الحديث عن ذلك فى حوار تليفزيونى فى فبراير 2012. وقد جعل هذا الحديث الكثيرين من المؤمنين يستبشرون ويحسنون الظن بدوكنز، ويتصايحون بأن أعتى الملاحدة قد بدأ فى إعادة النظر فى موقفه الإلحادى، والحقيقة غير ذلك.

يردد الملاحدة دائمًا أن العلم لا يستطيع إثبات وجود الإله، ويستطردون، قائلين كذلك لا يستطيع نفى وجوده[2]. هذا هو منطلق دوكنز فى تصريحه بأنه لا يستطيع نفى وجود الإله بشكل كامل، ومن ثم وضع نفسه على الدرجة 6.9. وهو يعتبر العجز عن ذلك تمامًا مثل العجز عن نفى براد الشاى الكونى، وعفاريت الحديقة، ووحش المكرونة الأسباجتى[3].

إن تصريح دوكنز بذلك لا ينبغى أن يخدعنا، فدوكنز لا يرقى إلى مستوى اللا أدريين أو الشكاكين الصادقين فى البحث عن الحقيقة، فهو فى مواضع عديدة يكرر أنه **ليس فقط لا دينى ولكنه ضد الدين**، خاصة دين الإسلام. وقد صرح دوكنز مرارًا أن أحداث 11 سبتمبر التى تُنسب إلى الأصولية الإسلامية قد حولته من ملحد مسالم إلى **ملحد أصولى** Fundamentalist!

(1) **تدريج دوكنز** The Dawkins' Scale

1- مؤمن بقوة Strong Theist
2- مؤمن معتاد DE-Facto Theist
3- ضعيف الإيمان Weak Theist
4- لا أدرى Pure Agnostic
5- ضعيف الإلحاد Weak Atheist
6- ملحد معتاد DE- Facto Atheist
7-- ملحد بقوة Strong Atheist

(2) هذا ما ناقشناه منذ قليل تحت عنصر «الاحتمالية».

(3) يعتبر الملاحدة بذلك أنهم قد **حَيَّدوا العلم تجاه قضية الألوهية**. وما يقولون هو نصف الحقيقة، فالعلم بلا شك لا يستطيع نفى وجود الإله، وذلك لسبب بسيط، وهو أن الإله موجود، وإثبات ذلك هو موضوع هذا الكتاب.

بعض جوانب الاتفاق

نقبت طويلًا فى كتاب وهم الإله، عَلِّى أجد شيئًا أوافق دوكنز عليه، فعثُرت فى مفهومين سطحيين لا بأس من قبولهما:

فدوكنز يرفض ما يُسمى «**دليل الخبرة الخاصة**»، الذى يشير إلى ما يشعر به المتدينون من مشاعر التسامى وما يشاهده بعضهم من مكاشفات، و يستشهدون بها على وجود الإله. و يعتبر دوكنز أن هذه التجارب الشخصية لا تُلزم أحدًا سوى من يعاينها، ونحن نوافقه.

كذلك يرفض دوكنز ما يُسمى «**دليل العلماء المشهورين المتدينين**» الذين يستشهد بهم البعض على صحة مفهوم الألوهية والدين، لما لهم من سمعة علمية طيبة. ونحن نوافق دوكنز على هذا المنهج بشرط **ألا يُزَوِّر مواقفهم** بادعائه أنهم من الملاحدة (كما يفعل مع أينشتين). وهذا لا يمنعنا من أن نستشهد بموقف العلماء المتدينين (كعلماء فيزياء الكم) من خلال **طرح حججهم**.

منهج دوكنز الفلسفى فى الميزان

المنهج الفلسفى هو الطريق الذى يتبعه المفكر للوصول إلى الحقيقة. فاستنادًا إليه، يقوم المفكر باستبعاد ما يرى خطأه و يربط بين ما يراه صوابًا ليشكل نظرته المتكاملة تجاه قضية معينة. و إذا تأملنا العناصر الثلاثة التى يقوم عليها منهج دوكنز الفلسفى (التعارض ـ المماثلة الاحتمالية) نجد أنها **تجهض أية دراسة موضوعية لقضية الألوهية، ولا تسمح إلا بتبنى الإلحاد**!!

فعنصر «**التعارض**» يضعنا من البداية فى مفترق طرق، الاختيار فيه محسوم مسبقًا. إما العلم و إما الألوهية! إذ لا يمكن (عند دوكنز) الجمع بينهما. إذا لم يمكن الجمع حقيقة فأنا شخصيًّا سأختار العلم!!

و ينطلق دوكنز فى عنصر «**الاحتمالية**» من مقدمة مسبقة بأنه يستحيل إثبات أن هناك إلهًا، فلماذا نضيع وقتنا وجهدنا من أجل قضية مقطوع بالعجز عن إثباتها.

وتُوقِع الاحتمالية دوكنز فى مطب عسير، فهو لا يستطيع نفى «احتمالية» وجود الإله، إذًا يظل باب الألوهية موارَبًا. هنا يطرح دوكنز العنصر الثالث «**المماثلة**» الذى سينفى شكوكك و يستبعد كل احتمالية بوجود الإله! فالتصرفات الإلهية لن تماثل تصرفاتنا البشرية، مما يجعلك

تحاكـم الإله عند كل فعل يخالـف ما نتوقعه منه، وتطرده فى السـاحة، وتعود إلى المربع صفر؛ مربع الإلحاد.

و يرفض الفيلسوف «الملحد» توماس ناجل منهج دوكنز فى النظر إلى الإله، فيقول: «إن الإله (الذى يتحدث عنه المؤمنون والملاحدة على السـواء) ليس موجودًا ماديًّا معقدًا يسـكن عالمنا الطبيعى (كما يُعَرِّفه دوكنز)، لذلك فإن تفسـير وجود الإله بأنه احتمالية نشـأت نتيجة لتجمع ذرات بالصدفـة فى عملية تطور عشـوائى أمـر مرفوض. **إن الإله الذى يـدور حوله الاختلاف والتنـازع وجود يختلـف تمامًا عن عالمنا المادى وعلومنا الطبيعية**، إنه وجود غير مادى قادر على إيجاد الوجود المادى. إن التفسـير المادى الذى يتبناه دوكنز دائمًا ليس هو التفسير الوحيد، لكن هناك التفسـير العقلى Mental، والغائى Purposive، والقصـدى Intentional، وكلها تقف وراء التفسير المادى ووراء قوانين الطبيعة»[1].

ونحن نتفق مع ناجل فى أن منهج دوكنز مقبول إذا كنا نبحث عن إله مادى ذى جسم خارق وذكاء كذكائنـا. وناجـل يوافقنـا أن الإله الذى يـدور حوله النقاش ليس كذلـك. إن ما نثبته ويحـاول دوكنز نفيه هـو **موجود مغاير تمامًا**، إن موقف دوكنز يشـبه تمامًـا أن ننكر أن هناك كائنًا يدرك الوجود باستعمال السونار، فقط لأننا كبشر ندرك الوجود عن طريق الإبصار!

إن منهج دوكنز الفلسفى يشبه «المتاهة» التى تقودك ـ إذا دخلت فيها ـ إلى نقطة البداية، ياله من منهج شيطانى يمثل سياجًا حديديًّا يحمى العقيدة الإلحادية ولا يُمَكِّن العقل من اختراقه.

ولا شك أن ريتشارد دوكنز هو أول ضحايا هذا المنهج.

الإله فى فلسفة دوكنز

الإله خلق الكون، فمن خلق الإله؟!

يقيـم دوكنز أشـهر كتبه وأكثرها إثارة للضجيج «وهم الإله» على هذا التسـاؤل السـاذج الذى كنا نطرحه ونحن صبية فى المدرسـة الإعدادية، حتى صرت أُسمى الإلحاد الذى يقوم على

(1) Thomas Nagel: The fear of Religion. P.26

هذا التساؤل **بالإلحاد الصبيانى**. لذلك يكرر دوكنز كثيرًا فى كتابه قوله: «ليس هناك دليل فلسفى أو علمى على وجود سبب أول ذكى؛ لأن ذلك الدليل سينهار عند البحث عن سبب هذا السبب الأول»[1]، وقد ناقشنا فى الفصل الثالث دَفْعَنا لهذا المنطق المعتل، وأثبتنا أنه ينبغى أن يكون للوجود سبب أول لا سبب له، ومن ثم **فالسؤال عن سبب من لا سبب له سؤال غبى**.

وقد استقر دفع هذا الادعاء فى علم الكلام الإسلامى منذ ألف عام، وعنه أخذ اللاهوت المسيحى ثم الفلسفة الحديثة. وبه أيضًا قال أنتونى فلو حين تحول من الإلحاد إلى الإيمان ولخص الأمر فى قول بسيط حكيم: **لا بد من موجد أول أوجد كل شىء**.

حقيقة الموجود الأزلى

عندما يطرح دوكنز تساؤله: من خَلَقَ السبب الأول؟ فذلك يعنى **رفضه لتقبل وجود موجود أزلى غير مخلوق**، وهذا الرفض يعكس خللًا فكريًّا آخر. فدوكنز يتبنى ـ مثل من سبقه من الملاحدة اليونانيين الأقدمين، وكذلك الماركسيين ـ أن الطاقة/المادة أزلية وأنها السبب الأول للكون. أى قبل هؤلاء أن تكون المادة غير العاقلة أزلية، أما أن يكون الإله أزليًّا، فلا!

إن الاختلاف بين الملاحدة والمتدينين ليس حول وجود حقيقة أزلية أولى، **فكلاهما يتفق على موجود أزلى**. ولكن الاختلاف يدور حول ماهية الحقيقة الأزلية الأولى: **الطبيعة أم الإله؟** وقد ذكرنا فى الفصل الثالث أن الطبيعة لا يمكن أن تكون هى السبب الأول، فالطبيعة ليست إلا طاقة ومادة وزمان ومكان، وقد أثبت العلم أن لهذه العناصر الأربعة بداية، أى أنها مخلوقة، ومن ثم فالطبيعة مخلوقة، وبالتالى لا يمكن أن تكون سببًا أول.

ونحن نرد على دوكنز سؤاله للمتدينين: **إذا كنت تعتبر الطبيعة هى الخالق، فمن خلق خالقك؟**

ذات الإله: مادى، معقد، متطور!

يعتبر دوكنز أن الأشياء الذكية (كالإنسان) ينبغى أن تكون معقدة، وأن الأشياء المعقدة

(1) صفحات 109, 114, 120, 141, 143, 147, 155, 156

لا تنشأ إلا بالتطور، لذلك إذا كان هناك إله ذكى أنشأ الإنسان والوجود **فينبغى أن يكون أكثر تعقيدًا وأن يكون قد نشأ نتيجة لعملية تطورية**[1]!. وانطلاقًا من منهجه الفلسفى الذى يدرس الإله «كاحتمالية»، يقول دوكنز: إن وجود الإله (الأعقد) هو أقل احتمالًا من وجود الأشياء (الأبسط) التى نحاول تفسيرها بوجوده. ويسمى دوكنز هذا الاعتراض على وجود الإله **بـ«دليل تعقيد الإله»**[2].

إن هذا الاعتراض لدوكنز خطأ بَيِّن؛ **فكثيرًا ما نفسر الأبسط بأمر أعقد**، دون أن يكون وجود الأعقد أقل احتمالية. فنفسر مثلًا سقوط التفاحة بقانون نيوتن للجاذبية أو بانحناء الزمكان (النظرية النسبية)، كذلك نفسر وجود الذرات وبنيتها وخصائصها بفيزياء الكم التى هى من أعقد العلوم[3].

إذا كان طرح دوكنز صحيحًا، فعلينا أن نرفض تفسير الكون بفيزياء الكوانتم الأكثر تعقيدًا أو **بالطاقة التى لا نفهمها ولا نعرف حقيقتها، تمامًا كما لا نعرف حقيقة الإله**.

إن هذا الخطأ لدوكنز **خطأ منهجى**، فليس المهم أن يكون التفسير أبسط أو أعقد، لكن **«القدرة التفسيرية»** هى الأهم. فإذا عَثَرَ عالم حفريات على خطين مرسومين بطريقة مميزة على جدار كهف قديم فإنه سيجزم أن كائنًا ذكيًّا قد رسمهما، ولن يعتبر أن إرجاع الخطين إلى مصدر أكثر تعقيدًا مرفوض علميًّا. وهل نرفض القول بأن دوكنز هو مؤلف كتاب «وهم الإله»، انطلاقًا من أن دوكنز أكثر تعقيدًا من كتابه؟ لا أظن أنه سيقبل ذلك.

صفات الإله

ويتساءل دوكنز: **كيف يثبت المتدينون علميًّا صفات الإله التى يَدَّعونها**؛ مثل طلاقة القدرة، طلاقة العلم، استجابة الدعاء، غفران الذنوب،..؟ وتحت عنوان «الدليل من الكتاب المقدس»[4] يبذل دوكنز جهدًا كبيرًا لتبرير رفضه لما جاء فى الكتب المقدسة عن الصفات

(1) The God Delusion, P. 31- 73.

(2) The God Delusion, P. 147.

(3) يخبرنا ريتشارد فيمان أن لا أحدًا يعرف كيف تعمل فيزياء الكم، ولا ما هى الطاقة التى تتشكل منها المادة!

(4) The God Delusion, P. 92 - 97.

الإلهيـة، باعتبـار أنها لا تُلزم إلا المؤمنين بها. ونحن نقول له إن **منهج الإسـلام** الذى يتماشى مع المنطـق هو إثبات وجود الله عَزَّوَجَلَّ وبعض صفاته وأيضًا إثبـات صحة القرآن الكريم **بدليل العلم والعقل**[1]، بعد ذلك يصبح من البديهى والحتمى الإيمان بما جاء فيه، شـاملًا جميع صفات الله عَزَّوَجَلَّ.

إله دوكنز
الاحتمالية والصدفة

يقبل كل شىء إلا الإله!

مـن أكثر ما يسـتدعى انتبـاه القـارئ لدوكنز **إيمانـه الجارف غـير المنطقـى «بالاحتمالية والصدفة»، فقد جعلهما التفسـير لكل معضلات الخلق، بـل جعلهما إلهه!** إن دوكنز يؤمن بأن أى حدث مهما بدا مسـتحيلًا يمكن تفسير وقوعه علميًّا بالاحتمالية والصدفة! تعال نتأمل هذا المثال الذى طرحه دوكنز[2]:

«إذا لَـوَّحَ **تمثـال رخامـى للعـذراء مريم** لنا بيـده فإننا سـنعتبر ذلك معجـزة؛ لأن خبراتنا ومعلوماتنا تؤكد أن الرخام يسـتحيل أن يسـلك بهذا الشـكل. و إذا كان المنهج العلمى يرفض إمكانيـة حدوث المعجـزة، فإنه لا يعتبر هذا الحـدث «مسـتحيل الوقـوع»، و إن كان بعيـد الاحتمال جدًّا».

و يـشرح دوكنز هـذه الاحتمالية قائـلًا: «فى الأحـوال العادية، تتصادم **جزيئـات الرخام** فتتدافـع فى اتجاهات عشـوائية يعادل بعضها بعضًا، لذلك تظل أجـزاء التمثال ثابتة. لكن إذا حـدث **تزامُـن** Coincidence ـ **بالمصادفة المطلقة** ـ فتحركت جميع جزيئـات الرخام فى ذراع التمثال فى اتجاه واحد فى نفس اللحظة فيمكن للذراع أن تتحرك فى هذا الاتجاه، ثم إذا عكست هـذه الجزيئات اتجـاه حركتها ـ بالمصادفة المطلقة أيضًا ـ فيمكن للـذراع أن تتحرك فى الاتجاه

(1) سنتناول موضوع «الصفات الإلهية فى العلم والفلسفة» فى الكتاب القادم إن شاء الله عَزَّوَجَلَّ.

(2) Blind Watch maker, New York: Norton 1996, P. 159،

ثم كرر المثال فى كتابه وهم الإله P. 373- 374

المعاكس، بذلك يُلَوِّح التمثال لنا بيده». ويضيف دوكنز: «**ليس هناك استحالة رياضية لحدوث ذلك**».

لقد قَدَّر أحد الفيزيائيين الرياضيين «احتمالية» حدوث التزامن بالمصادفة فى حركة الجزيئات بحيث يسمح بحركة ذراع التمثال، فوجد أن عمر الكون كله لا يكفى لكتابة الرقم الذى يدل على ضآلة الاحتمالية. إنها تقارب احتمالية أن تقفز **بقرة** من الأرض فتستقر على القمر[1]. وبهذا المنطق أيضًا، يمكن أن يتحول القمر إلى قرص هائل من **الطعمية**! عن طريق إعادة ترتيب جزيئاته، إذ أن **احتمالية حدوث ذلك يمكن حسابها رياضيًّا!**

ومن أجل أن يصبغ دوكنز على الاحتمالية والصدفة مظهرًا علميًّا فى مجال البيولوجيا، فإنه صك اصطلاحًا غامضًا هو «**الإمكانية البيولوجية** Biologically Possible»، وحدد لها مقياسًا شديد الغموض (ويغيظ)؛ فقال: إن الشىء قابل للحدوث إذا كانت عدم احتمالية وقوعه تبلغ أرقامًا أقل من فلكية Less than astronomical Improbility. وإذا جارينا دوكنز فى تعريفه، ألا يُعتبر الرقم الذى لا يكفى عمر الكون لكتابة أصفاره رقمًا فلكيًّا!!

أهذا يا دوكنز تعريف أم تخريف؟!

ونظرًا لإدراك عدد من البيولوجيين الملاحدة استحالة نشأة الحياة «**تلقائيًّا**» على كوكب الأرض فقد تهربوا من المشكلة بادعاء أن الحياة قد وصلت للأرض **من كوكب آخر**. لقد قبلوا هذا ولم يقبلوا القول بالاحتمالية والصدفة!

وإذا انتقلنا من هذه الأمثلة إلى **قضية الألوهية**، نجد دوكنز يقول: «لا أستطيع أن أجزم تمامًا بعدم وجود الإله، لكن هذا الاحتمال ضئيل جدًّا، لذلك فإننى أحيا حياتى باعتباره غير موجود»[2]. سبحان الله! فى قضية الألوهية جعل دوكنز من الاحتمالية الرياضية الضئيلة جدًّا لوجود الإله **حكم الاستحالة**، فقرر أن يحيا حياته باعتباره غير موجود. أما فى حركة ذراع التمثال الرخامى جعل الاحتمالية الضئيلة جدًّا جدًّا جدًّا فى حكم الممكن، وبناء عليها يرفض قيام الإله بهذه المعجزة.

(1) مسافة 240.000 ميل، مراعيًا دوران الأرض والقمر، وضعف قوة عضلات البقرة، واحتكاك البقرة بالوسط المحيط، و...).

(2) The God Delusion, P. 51

وإذا كانت القاعدة المنطقية لتشخيص المعجزة تقول: إن وقوع أمر ما يُعَد معجزة إذا كان مستحيل الحدوث، فإن دوكنز قَلَبَ القاعدة لتصير: إن الأحداث المستحيلة تصبح ممكنة بالصدفة؛ لأن حدوث المعجزات بعيد الاحتمال جدًّا! بذلك **يتنحى الإله الحق لصالح الصدفة**، إله دوكنز. والآن فلنحلل أقنومي[1] إله دوكنز: «الاحتمالية» و«الصدفة»:

«الاحتمالية الرياضية» لا تعنى «الإمكانية الفعلية»

إن سقطة دوكنز المنهجية فى مجال الاحتمالية والصدفة، أنه **يخلط بين «الاحتمالية الرياضية» و«الإمكانية الفعلية». فهو يَدَّعى «إمكانية» وقوع أى حدث فيزيائى (كتلويح التمثال أو قفزة البقرة أو القمر الطعمية) طالما يمكن حساب «احتمالية» حدوثه بالمصادفة**، ولا شك أن هذا الخلط بالغ الخطأ.

تصور أنك فى يوم من الأيام عدت إلى بيتك طافح البِشر والسعادة، وعندما سألتك زوجتك عن سر ذلك، أخبرتها أن ابتداء من الشهر القادم سيُزاد مرتبك إلى مليون جنيه شهريًّا. اندهَشَت زوجتك وسألت «كيف»؟ و«لماذا»؟ ما الآلية وما المبرر؟ أجبتها بأن «**الاحتمالية الرياضية**» تسمح بذلك وتبلغ 50 %!

المشكلة أن زوجتك ـ لسوء حظك ـ درست نظرية الاحتمالات بعمق، فسخرت منك، وأخبرتك أن **«الاحتمالية الرياضية» لا تعنى أن الحدث قابل لأن يخرج إلى حيز الواقع دون أن تتوافر له المقدمات** التى تنسجم مع القوانين الموجِدة للظاهرة. ولما كانت هذه المقدمات غير موجودة فى حالتك فإن الاحتمالية الرياضية «**يستحيل**» أن تخرج إلى حيز الإمكان. لا شك أن كلمات زوجتك أصابتك بالإحباط[2].

إن دوكنز يحاول أن يُسَوِّق لنا ادعاءه بفاعلية الاحتمالية الرياضية، ونحن نخرسه بالمنطق

(1) إشارة إلى اصطلاح الأقانيم الثلاثة التى يُقَسِّم إليها المسيحيون الإله: الأب ـ الابن ـ الروح القدس.

(2) فلنضرب مثالًا آخر يبين الفرق بين «الاحتمالية الرياضية» و«الإمكانية الفعلية»:
إذا ألقينا عددًا من أوراق اللعب (الكوتشينة) لأعلى، وتركناها تسقط على الأرض، فيمكن حساب احتمال أن تسقط هذه الأوراق بتتابع قيمها العددية، وليكن الاحتمال 1/مليون. لكن ماذا يحدث إذا ألقينا بنفس الأوراق فى إعصار؟ إن «الاحتمالية الرياضية» تقل بمقدار كبير لتصبح مثلًا 1/بليون أو 1/تريليون، لكن فى الحقيقة هناك «**استحالة فعلية**»، فالإعصار سيبعثر الأوراق فى كل مكان.

الذى طرحته زوجتك. إن الاحتمالية الرياضية لأن يحرك تمثال العذراء الرخامى ذراعه لا تعنى إطلاقًا الإمكانية الفعلية لحدوث ذلك، بل إن ذلك مستحيل لعدم توافر مقدمات تزامن حركة الجزيئات، فالصدفة غير قادرة على إحداث ذلك، كما سنرى بعد قليل.

كذلك يقع دوكنز فى خطأ منهجى آخر، فهو يتغافل عن أن **الاحتمالية الرياضية الضئيلة جدًّا تبلغ بنا حد الاستحالة الإمكانية**. لذلك يتحدث المتخصصون فى دراسة الصدفة عما يُعرف «**بالحد الاحتمالى الأدنى** Universal Probability bound» ، ويقصدون به أن إمكانية وقوع الحدث بالصدفة تصبح فى حكم المستحيل إذا قَلَّت احتماليته عن حد معين. وقد قدر المتخصصون هذا الحد بـ 1×10^{-150}، وهو حد مقبول جدًّا إذا قورن باحتمالية حركة ذراع تمثال العذراء الرخامى بالصدفة.

إن هذين العاملين **(الاحتمالية لا تعنى الإمكانية، والحد الاحتمالى الأدنى)** تجعلان من الأقنوم الأول من إله دوكنز «الاحتمالية» إلهًا عاجزًا لا قدرة له.

حقيقة الصدفة

ما حقيقة الصدفة؟ ذلك الأقنوم الثانى لإله دوكنز، الذى يجعل منه عِوَضًا للإله الحى، الفَعَّال، الحكيم، الخالق؟ نجيب عن هذا السؤال بما قاله أرسطو للمؤمنين بالصدفة فى زمانه:

«لا تصلح الصدفة لتفسير شىء، لأنها ليست شيئًا على الإطلاق». فإذا حللنا قول مثل «إن وقوع حدث ما بالصدفة أمر محتمل، نجد أن جوهر الأمر هو **«وقوع حدث»** وليس **«بالصدفة»** التى ليست شيئًا.

ولنشرح ذلك بمثال: إن احتمالية الحصول «بالصدفة» على الرقم «5» عند إلقاء زهر هو 1/6. هل 1/6 شىء أو سبب؟! إن الحصول على «5» بالصدفة تقف وراءه أمور حقيقية؛ مثل: لدينا زهر له ستة أوجه، يمكن هز الزهر وقذفه بقوة معينة، شكل الزهر يسمح بالاستقرار على أحد الجوانب الستة بنفس الاحتمالية... وهكذا. إن قولنا بالحصول على رقم «5» بالصدفة هو **أسلوب مختصر للتعبير عن محصلة هذه العوامل كلها**. إن احتمالية 1/6 ستتلاشى إذا غيرنا من الأمور السابقة: كأن نقذف بالزهر فى فرن شديد الحرارة فينصهر، أن نملأ ثقوب الزهر بمادة تخفى الأرقام...

ولنُصَعِّد المثال السابق لتتأكد أن **«الصدفة» لا وجود لها فى الحقيقة**. هل تعلم أنك تستطيع الحصول على نفس الرقم عند إلقاء زهرى الطاولة مرات متعددة إذا ثَبَّتَ نفس العوامل(قوة إلقاء الزهرين، وزاوية الإلقاء، و....) إن ذلك يعنى أن **ما نعتبره صدفة إنما هو محصلة لعوامل عديدة نعجز عن حصرها والتحكم فيها، ومن ثم نطلق على محصلتها اصطلاح «صدفة»**.

إذًا فالصدفة ليست سببًا أوليًّا، إنها نتيجة ثانوية تتبع عوامل أخرى. هكذا ينهار الأقنوم الثانى من إله دوكنز الذى جعله إلاهًا فاعلًا.

زاد الطين بِلَّة

فى محاولته لإنقاذ إلهه الصدفة، لجأ دوكنز إلى **تقسيم القدر الهائل من اللاحتمالية إلى أجزاء صغيرة**، وافترض إمكانية حدوث كل منها بالصدفة خلال بضعة ملايين من السنين.

بالرغم من إثباتنا أن الصدفة غير قادرة على فعل أى شىء، تعال نجارى دوكنز فى محاولته: لنفترض أننا سنقسم آلية نشأة جزىء الهيموجلوبين بالصدفة إلى 1000 خطوة، وأنه سيكون أمام كل خطوة أحد احتمالين، إما أن تحدث فتقترب بنا من بنية جزىء الهيموجلوبين أو لا تحدث. إن احتمالية اكتمال هذه الخطوات الألف بنجاح هى 2^{1000} أى حوالى 10^{300}، إنها احتمالية أكثر ندرة من نشأة جزىء الهيموجلوبين بالصدفة فى مرحلة واحدة والتى تبلغ 10^{190}! وهو الأمر الذى لم يتنبه إليه دوكنز.

بذلك يتحول إله دوكنز «الاحتمالية والصدفة» إلى وهم وسراب. **فالاحتمالية لا تحقق إمكانية، كما أن الصدفة لا وجود لها أصلا**. سبحان الله القائل فى كتابه الحكيم ﴿ **وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾** ﴾ [المؤمنون].

خرافة صانع الساعات الأعمى

أراد دوكنز أن يدعم إلهه (الاحتمالية والصدفة) العاجز عن توجيه عملية التطور البيولوجى، فخرج علينا بأكذوبة أخرى أطلق عليها **«الانتخاب الطبيعى التراكمى»**، وضَمَّنَها

كتابه «**صانع الساعات الأعمى** Blind Watch Maker»[1]، الذى كان سببًا فى شهرته. وفى الكتاب يمهد دوكنز لعرض وجهة نظره التراكمية حول التطور فيقول:

«استعرت اصطلاح صانع الساعات (فى عنوان كتابى) من رسالة «**اللاهوت الطبيعى**» التى نشرها عالم اللاهوت وليام بالى عام 1802، وتعتبر الرسالة أحسن عرض معروف لـ «**برهان التصميم**»، الذى يعنى **أن الوجود بما فيه من إبهار يشير إلى وجود إله قام بتصميمه وخلقه.**

ويبدأ بالى رسالة «اللاهوت الطبيعى» بفقرته المشهورة: لنفرض أن قدمى حطت على «**حَجَر**» فى أثناء عبور حقل، وتساءلت: كيف وصل الحجر إلى هنا؟، لعلى أعتبر أن الحجر يقبع هنا منذ الأزل. ولكن لنفرض أنى وجدت «**ساعة**» فى هذا المكان، فلا أظن أنى سأفكر فى الإجابة السابقة».

ويواصل بالى حديثه، فيبين الإحكام الذى تُصنع به تروس الساعة وزنبركاتها، والدقة التى توضع بها هذه الأجزاء معًا، ثم يعلق قائلًا: فإذا عثرنا على شىء مثل الساعة فى حقل، أجبرنا إحكامها ودقة تصميمها أن نستنتج أنه «**ينبغى أن يكون للساعة صانع شَكَّلها لتفى بالغرض المطلوب منها**». ويعمم بالى هذا الاستنتاج، فيقول: «إن ما فى الساعة من مظاهر التصميم وأدلة على الاختراع توجد أيضًا فى الكون، بل إن **الكون أعظم وأكبر وأدق** بدرجة تفوق كل تقدير».

ويؤكد بالى وجهة نظره بمثال آخر شهير وهو **العين البشرية**، فيقارن العين بآلة مُصَمَّمَة مثل التليسكوب، ويرى أننا إذا أقررنا بأن التليسكوب قد صُمِمَ وصُنع للمساعدة على الرؤية، فمن باب أولى أن للعين (التى هى أصل الرؤية) مُصَمِّمًا وصانعًا».

ثم يعلق دوكنز: «لقد صيغت حجج بالى بإخلاص مشبوب، وأُيدت بمعلومات من أحسن ما توافر فى علم البيولوجيا فى ذلك الوقت. ولكن الربط بين التلسكوب والعين، وبين الساعة والكون هو **ربط زائف**».

فصانع الساعات الحقيقى له تَبَصُّر للأمام؛ فهو يصمم تروسه وزنبركاته، ويخطط لما بينها

(1) قام بترجمة الكتاب إلى العربية الدكتور مصطفى إبراهيم فهمى، ونشرته مكتبة الأسرة باسم «**الجديد فى الانتخاب الطبيعى**» عام 2002، وتقع ترجمة الكتاب فى 425 صفحة من القطع الكبير.

من ترابطات، وقد وضع نُصب عينيه هدفًا مستقبلًا (غاية). أما صانع الساعات فى الطبيعة فهو تلك **العملية التلقائية العمياء غير الواعية** التى وصفها دارون (وهى **الانتخاب الطبيعى**)، والتى نعرف الآن أنها تفسر نشأة الحياة، دون أن يكون لها عقل وهدف».

ويرى دوكنز أن لُب الدارونية هو حقيقة بسيطة كل البساطة، وهى «**أن التكاثر مع وجود طفرة وراثية حدثت بالصدفة (عشوائية) ثم تبعها انتخاب طبيعى (لا عشوائى) إذا أُتيح لهما معًا الزمن الكافى، فإن ذلك يؤدى إلى تطورية فى الحياة هى أبعد من الخيال**».

ويؤكد دوكنز «أن **الانتخاب الطبيعى** الذى يتحكم فى التطور هو **اختيار «لا عشوائى»**، وإن كان فى الوقت نفسه **بلا عقل ولا يتجه لهدف فى المستقبل**، وإن كان يبدو بالنظر إلى الخطوة السابقة له أنه يحقق ما يشبه أن يكون تقدمًا نحو هدف. وهو إذ يؤدى إلى تصميمات مركبة فهو بمثابة صانع ساعات معقدة ولكنه **صانع ساعات أعمى بلا رؤية للمستقبل**!».

أما **الطفرة العشوائية**، فيرى دوكنز أن **دورها ثانوى فى التطور**[1]!، ويرى أنها مجرد بداية التغير البسيط الذى يظل يتراكم بالانتخاب الطبيعى اللاعشوائى لتكوين ما هو أكثر تعقيدًا، حتى نصل على المدى الزمنى البعيد إلى أقصى تَعَقُّد وتَرَكُّب.

برهان القِرَدَة

إذا كانت «الاحتمالية والصدفة» هى إله دوكنز وكل الدراونة، فإنهم يلجأون إلى الاستشهاد على قدرته ببرهان القِرَدَة الذى يُنسب إلى توماس هكسلى[2] نصير دارون الأول، والذى يدعى أن **مجموعة من القردة** لو تُركت وقتًا كافيًا لتدق على مجموعة من **الآلات الكاتبة** فإنها ولا شك ستكتب قصيدة من **قصائد شكسبير**، وربما إحدى مسرحياته، بل ربما أعمال شكسبير كلها.

وقد لقى هذا البرهان من **التسفيه بالأدلة العلمية العقلية والرياضية** ما جعل سير أنتونى فلو

(1) يحاول دوكنز هنا أن يصد بعض أوجه الهجوم الرئيسية على الدارونية، مثل ما تُتهم به من أن التطور فيها يعتمد على صدف عمياء عشوائية، مع أنه لا يمكن أن ينشأ تركب وتعقد منتظم عن العشوائية دون مصمم ذكى.

(2) Thomas Huxley: (1825 – 1895)، عالم البيولوجيا البريطانى المهتم بالتشريح المقارن، كان أشد المتحمسين لدارون حتى سُمى Darwin's Bulldog. ولا شك فى خطأ نسبة برهان القِرَدَة إلى هكسلى، فالشائع أنه قد استخدمه فى مناظرته الشهيرة فى أكسفورد عام 1860، بينما لم تُعرف الآلات الكاتبة إلا عام 1874.

يصفه بإنه **كومة من النفايات**. ومن هذه الأدلة ما أثبته الرياضى الكبير جيان كارلو روتا[1] من أن عمر الكون كله لن يكفى لكتابة مسرحية واحدة لشكسبير إذا دق القرد على آلة كاتبة بمعدل مرة كل نانو ثانية. ويبين رَسِل جريج[2] أن القرد من أجل أن يكتب قصيدة تتكون من 603 حرف بالمصادفة يحتاج 10 ^{1017} سنة، بينما عمر الكون 13.7 بليون سنة فقط. لذلك يؤكد سير فريد هويل[3] أن المادة مهما بلغت من حجم ومهما أُعطيت من زمن فإنها تعجز عن إنشاء الحياة بالصدفة لأسباب علمية إحصائية بحتة، ويضيف: **إن هذه الحقائق الإحصائية كافية لأن تدفن دارون ونظريته**.

وللخروج من هذا المأزق، قام دوكنز بمحاولة **لإعطاء قبلة الحياة لإلهه** «الاحتمالية والصدفة»، فطرح ما أسماه بآلية **«الانتخاب الطبيعى التراكمى»**، وادعى أنه يزيد من الاحتمالية كما يلغى دور الصدفة فى التطور الداروينى، **ويجعل منه عملية ذكية لكنها غير واعية**!! فلننظر ماذا يقول دوكنز.

الانتخاب الطبيعى التراكمى

يشرح ريتشارد دوكنز الفرق بين الانتخاب التراكمى وبين الانتخاب بخطوة واحدة، فيقول: إذا مَرَّرت كمية من حبيبات الحصى مختلفة الأحجام من خلال غربال مرة واحدة فستحصل على كومتين من الحصى، إحداها حصياتها أكبر والأخرى أصغر من ثقوب الغربال. أما إذا أخذت نواتج عملية الغربلة ومررتها مرات متتالية خلال غرابيل تضيق ثقوبها بشكل متدرج، فستفصل الأحجام المختلفة من الحصى بدقة كبيرة. إن ذلك يشبه **عملية الانتخاب التراكمى التى يتم فيها الفرز عبر أجيال كثيرة متعاقبة، على أن يكون المنتَج النهائى لجيل الانتخاب الطبيعى الأول هو نقطة البداية للجيل التالى**، وهكذا دواليك لأجيال كثيرة.

ويضرب دوكنز مثالًا بجزىء الهيموجلوبين ليؤكد محدودية **قدرة «الانتخاب بخطوة**

(1) Gian-Carlo Rota: 1932 - 1999)، عالم الرياضيات والفيلسوف الإيطالى الأصل الأمريكى الجنسية.

(2) Russell Grigg: ولد فى نيوزيلاندا عام 1927، تخصص فى الكيمياء، من أنصار مفهوم الخلق الخاص.

(3) Sir Fred Hoyle: (1915 - 2001)، عالم الفلك البريطانى الكبير، له مساهمة كبيرة فى تطوير نظرية الانفجار الكونى الأعظم.

واحـدة» فيقـول: «يتكـون جـزىء الهيموجلوبـين من أربع سلاسـل من الأحمـاض الأمينية مضفورة معًا. ولننظر إلى سلسـلة واحدة فحسب من الأربع؛ إنها تتكون من 146 حمضًا أمينيًّا، و إذا كان هنـاك عشرون نوعًا مختلفًا من الأحماض الأمينية يشـيع وجودها فى الكائنات الحية، فـإن عـدد الطرق الممكنـة لترتيب 20 نوعًا من شىء ما فى سلاسـل يبلغ طولهـا 146 وحدة هو عـدد هائل يمكن حسـابه، ولكن يسـتحيل تصوره، يسـميه البيولوجيون فى هـذا المثال «**عدد الهيموجلوبين**»[1]. و يبلغ (على وجه التقريب) واحدًا يتبعه 190 صفرًا.

هـذا هو الاحتمال إذا انتظرنا الحصول على إحدى سلاسـل الهيموجلوبين الأربع فى خطوة واحدة بالصدفة، وجـزىء الهيموجلوبين ليس إلا جزءًا صغيرًا جدًّا من تركيب الكائن الحى، لذلـك من الواضح أن **الانتخاب بخطوة واحدة لا يقترب أدنى اقتراب من توليد النظام الموجود فى كائن حى».**

أمـا الانتخـاب الطبيعـى التراكمى فشىء آخر، ولشرح دوره يسـتخدم دوكنـز **مثال القرد الشهير و يقول:** أشار توماس هكسلى إلى أن القرد لو أتيح له الزمن الكافى ليضرب عشوائيًّا على آلة كاتبة فإنه سـيتمكن فى إحدى المرات من إنتاج **كل أعمال شكسـبير**. ربما تستبعد احتمال حدوث ذلك عن طريق الانتخاب بخطوة واحدة، أما مع الانتخاب التراكمى فالأمر ممكن!.

و يسترسـل دوكنز قائلًا: دعنا نحدد المهمة التى يواجهها قردنـا هـذا؛ لنفـرض أن عليه، لا أن يُنتـج أعمـال شكسبيـر كلهـا، و إنما فقـط جملـة قصيرة: «**أظنها تشـبـه ابن عُـرس** Me think it is like a weasel[2]» وردت على لسـان هاملت فى مسرحية عطيل، تراجيدية شكسـبير الشهيرة.

تتكـون الجملة من 28 حرفًا (شـاملة المسـافات). ولنفترض أن القرد سـيقوم بسلسـلة من **«المحـاولات»** المنفصلة، كل محاولـة عبارة عن 28 دَقَّة على لوحة مفاتيـح الكمبيوتر. إذا طبع

(1) إن الحلقة الأولى من السلسلة قد تكون أى حمض من الأحماض الأمينية العشرين المحتملة، والحلقة الثانية قد تكون أيضًا أى حمض من العشرين، لذلك فإن العدد المُحتَمَل للسلاسـل التى من وحدتين هو 20×20= 400 والعدد المحتمل لسلاسل من ثلاث وحدات هو 20×20×20 = 8000. والعدد المحتمل للسلاسل من 146 وحدة هو 20 مضروبة فى ذاتها 146رة، والناتج **عدد كبير لحد الإذهال**.

(2) ابن عُرس هو أحد الثدييات من آكلة اللحوم، ويُسمى فى مصر «عِرْسَة».

القرد الفقرة الصحيحة تنتهى التجربة، و إذا لم يفعل، فإننا نسمح له بـ«**محاولة**» أخرى من ثمانٍ وعشرين دَقَّة، وهكذا.

ولما كنت لا أعرف أى قرد، فقد اضطررت أن «**أُبرمج**» **الكمبيوتر ليقوم عشوائيًّا بالمهمة:**

وباستخدام نفس أسلوب الحساب الذى قمنا به لعدد الهيموجلوبين، نجد أن فرصة القرد/الكمبيوتر للوصول إلى العبارة الكاملة المكونة من 28 حرفًا هى (1/28) مضروبة فى نفسها 28 مرة. وهذا احتمال ضئيل جدًّا، يقترب من 1×40-10. باختصار إن العبارة التى نطلبها لن تأتى إلا بعد زمن طويل جدًّا جدًّا، دع عنك الحديث عن مؤلفات شكسبير الكاملة.

هذا بالنسبة للانتخاب بخطوة واحدة، فماذا عن الانتخاب التراكمى؟ إنه أكثر فاعلية إلى حد أكبر كثيرًا جدًّا جدًّا مما تتصور. ولندرك الفرق، استخدمت مرة أخرى القرد/الكمبيوتر لكتابة نفس الجملة، ولكنى «**أعددت برنامجه**» ليشبه ما قمنا به من غربلة الحصى خلال غرابيل متتابعة:

1- بدأ الكمبيوتر بكتابة **تتابع عشوائى** من 28 حرفًا ومسافة، فكتب:

WDLMNLT DTJBKWIRZREZLMQCO P

2- أعطيت الكمبيوتر الفرصة ليكرر هذا التتابع العشوائى عدة مرات، و«**برمجته**» ليُحدث بعضَ الأخطاء العشوائية فى النسخ = «**طفرة**».

3- فى كل مرة «**يفحص**» الكمبيوتر حروف التتابعات الطافرة الجديدة، و«**يختار**» **إحداها على أن تشبه العبارة المطلوبة شبهًا أكبر!!!!** ثم يقوم بكتابة تتابع آخر من 28حرفًا ومسافة مستخدمًا الحروف التى اختارها. وفى مَثَلِنا هذا كانت الحروف الناتجة فى «الجيل» التالى:

WDLMNLT DTJBKWIRZREZLMQCO P

4- لم يكن هذا بالتحسن الملحوظ ! على أن **العملية تتكرر**، ومرة أخرى تحدث طفرات فى ترتيب الحروف و يتم «**اختيار**»!!!! ترتيبًا جديدًا فائزًا، و يستمر هذا جيلًا بعد جيل.

5- وبعد عشرة أجيال (محاولات) كانت الحروف المُختارة هى:

WDLDMNLS ITJISWHRZREZ MECS P

6- وبعد عشرين جيلًا كانت الحروف هى:

MELDINLS IT ISWPRKE Z WECSEL

7- وبعد ثلاثين جيلًا:

METHINGS IT IS WLIKE B WECSEL

8- ويقترب بنا الجيل الأربعون من العبارة المطلوبة إلى حد بعيد:

METHINKE IT IS LIKE I WEASEL

9- وقد تم الوصول إلى الهدف النهائى **فى الجيل الثالث والأربعين**.

ثم **كُرِرَت التجربة مرة أخرى** فوصلنا إلى نفس العبارة المطلوبة **فى الجيل الرابع والستين**.

وفى محاولة ثالثة، وصلنا إلى نفس العبارة المطلوبة بعد **41 جيلا** من الانتخاب التراكمى.

ويطرح دوكنز استنتاجاته من التجربة:

إذا تركنـا الأمر **للانتخاب بالخطوة الواحدة** (كل محاولـة تكون جديدة تمامًا) لكتابة هذه الجملة، فإن ذلك سيستغرق ما يقرب من 1×10 30 سنة. وهذا **أكثر مليون مليون مليون مرة من عُمر الكون**. فى حين أنه إذا تقيد الكمبيوتر «**المبرمَج**» **بالانتخاب التراكمى** (حيث يُستَخْدَم كل تحسين مهما كان صغيرًا، كأساس للبناء فى الخطوة التالية) فإنه يستغرق لأداء نفس المهمة من إحدى عشرة ثانية إلى الوقت الذى تستغرقه فى تناول وجبة الغذاء !!.

لذلك **إذا كان ثَمة طريقة!!! يمكن بها للانتخاب التراكمى** أن يَحدُث «**بتوجيه**» من **قوى الطبيعة العمياء**!!! فإن النتائج قد تصبح غريبة مدهشـة! وواقع الأمر أن هذا هو ما حدث بالضبط فوق هذا الكوكب، ونحن أنفسنا نُعَد من أروع هذه النتائج إن لم نكن أغربها وأكثرها إدهاشًا.

ومن ثَمَّ، فإن الاعتقاد بأن التطور الداروينى «عشـوائى» هـو اعتقاد زائف تمامًا! فالحقيقة عكـس ذلـك!!. **فالمصادفة عنصر ضئيـل فى الوصفة الداروينيـة !! أما أهم عنـصر فيها فهو الانتخاب التراكمى الذى هو فى جوهره «لا عشوائى» !!!!**.

انتهى كلام ريتشارد دوكنز بنفس عباراته...

مغالطات جوهرية

قـارئى الكريم، تعال نتأمل التجربة التى أجراها دوكنز على جهاز الكمبيوتر، وهى تجربة

ساذجة تحوى «**مغالطات جوهرية**» **تُذهِبُ كليةً بمفهوم «الانتخاب التراكمى» بل وتعصف بالثقة فى منهج دوكنز العلمى.**

أولًا: اقرأ فى الخطوة (3) نص عبارة دوكنز :

«فى كل مرة يفحص الكمبيوتر حروف التتابعات الطافرة الجديدة، **ويختار إحداها على أن تشبه العبارة المطلوبة شبهًا أكبر !!**».

يُقر دوكنز أنه قد «**برمج**» الكمبيوتر «**ليفحص**» التتابعات «**ويختار**» **أكثرها شبهًا** بالعبارة المطلوبة «**التى تم تحديدها مسبقًا**»! نقول: «**هل هذا انتخاب طبيعى؟ أم تصميم واختيار ذكى للوصول إلى جملة تم تحديدها مسبقًا** بتوجيه من برنامج الكمبيوتر، كيف **يَدَّعى دوكنز بعد ذلك أن صانع ساعاته أعمى**؟!

أليس هذا «تطورًا موجهًا إلى غاية محددة سلفًا» يهيمن عليه عقل ذكى.

ثانيًا: انظر إلى الخطوة (1) التى كتب فيها الكمبيوتر تتابعًا عشوائيًّا من 28 حرفًا ومسافة ثم استولد منها فى الخطوة (2) تتابعات أخرى. إن **هذا جائز وممكن فى برامج الكمبيوتر، أما فى البيولوجيا فغير جائز. لماذا؟**

فلنطبق ذلك على جزىء الهيموجلوبين كمثال. فى حالة التراص الأول العشوائى لـ 146 حمضًا أمينيًّا، هل سيكون الناتج جزيئًا قادرًا على العمل بكفاءة قليلة حتى يُسلمنا إلى الخطوة (2) مع خطأ عشوائى بسيط، أم أن التراص الأول لن يكون إلا تتاليًا عشوائيًّا من الأحماض الأمينية لا عمل له ولن يُوَرَّث بفساده إلى الجيل التالى، ومن ثم لن يُسلمنا للخطوة (2)، فى هذه الحالة **فإن سلسلة التطور التى أنجزها الكمبيوتر فى 41 أو 63 أو 43 خطوة لن يُكتب لها أن تتجاوز الخطوة الأولى**. أم تُرى أن هناك خالقًا جعل من التتابع العشوائى فى الخطوة الأولى مركبًا عضويًّا قادرًا على العمل وصالحًا للتوريث، لو أقر دوكنز بذلك فسيكون متفقًا مع ما يقول به الخلقويون وأنصار التطوير الإلهى.

ثالثًا: اقرأ نص عبارة دوكنز:

«لذلك إذا كان ثَمة طريقة يمكن بها للانتخاب التراكمى أن يحدث «بتوجيه» قوى الطبيعة العمياء، فإن النتائج قد تصبح غريبة مدهشة !».

لى سـؤال: ما هى هذه الطريقة التى تُمِد قوى الطبيعة العمياء بالقدرة على الاختيار المُبَرمَج كما حدث فى الكمبيوتر ؟. لا بد أنها طريقة غاية فى الذكاء والقدرة.

رابعًـا: انظـر إلى قول دوكنـز فى موضع آخـر: **«أما الطفرة العشـوائية فدورهـا ثانوى فى التطور!! فهى مجرد بداية التغير البسيط الذى يظل يتراكم بالانتخاب الطبيعى اللاعشوائى».**

يختلف معظم الداروينيين مع قول دوكنز هذا، إذ يرون أن **الانتخاب الطبيعى** يقوم بتأكيد أو نفى الطفرة العشـوائية التى تحدث بالصدفة، **وليس له أى دور إنشـائى**، فالانتخاب الطبيعى ينقـل الطفرات العشـوائية للأجيـال التالية ويضيف بعضهـا إلى بعض، **أما الأهـم فهو التغير العشوائى نفسه**[1].

> هب أن أسـطولًا من سـيارات النقل (الانتخاب الطبيعى) يقـوم بنقل وتجميع أصناف من البضائع من أماكن إنتاجها ليودعها فى مخزن. إذا أُعجبنا بالمحتوى النهائى للمخزن، **هل ينسب أحد جودة المخزون إلى كفاءة أسـطول النقـل أم إلى جودة البضاعة وكفاءة صانعها** ؟ كذلك إذا كانـت مهارة صانع السـاعات (الذى يجمع أجزاءها) مطلوبة، فـإن جودة كل ترس وكل زمبرك وموافقته للمواصفات أكثر أهمية.

خامسًا: يدعى القائلون بالطفرات العشوائية بالصدفة **أن الزمن قادر على إنجاز كل شىء**، لذلك فعندما تحاصرهم المعضلات ـ وما أكثرها ـ يدافعون بأن التطور لم يحصل فى آلاف السنين بل فى مئات الملايين من السنين.

إن فى هذا الاحتجاج بالزمن **جهلًا بمضمون القانون الثانى للديناميكا الحرارية**، الذى يقول بـأن أى نظام مغلق (نظـام لا تأتيه طاقة أو تنظيم من الخارج) يسـير نحو زيـادة «الإنتروبيا entropy[2]» أى إلى تزايد العجز عن الاسـتفادة من الطاقة، فيسـير نحو التعادل الحرارى، أى إلى الموت البطىء .

معنى ذلك **أن الزمن – وحده – عامل هدم وليس عامل بناء**، أى أنك إن تركت **نظامًا عشوائيًّا** لحالِه فإنه يتحلل ويتهدم ولا يتحسـن وضعه، ولكى تحافظ عليـه وتدفعه للبناء **فعليك توجيهه عن طريق اتخاذ تدابير خاصة.**

(1) ناقشنا هذا المفهوم فى الفصل السادس بالتفصيل.
(2) تعكس الإنتروبيا مقدار عدم الانتظام فى منظومة ما.

سادسًا: دوكنز ونظرية الاحتمالات وقانون الصدفة

يضرب الرياضيون مثالًا يشرحون من خلاله **نظرية الاحتمالات**:

هـب أنـك وضعت فى جيبك خمس كـرات صغيرة إحداها حمراء، وقمـت بوضع يدك فى جيبك عدة مرات لتُخرِج فى كل مرة إحدى الكرات، راغبًا فى أن تُخرج الكرة الحمراء.

إذا كنـت بعـد كل محاولة تعيد الكـرة (إذا كانت غير حمـراء) إلى جيبك قبـل أن تعاود المحاولة مرة أخرى، فسـتظل فرصة خروج الكرة الحمـراء فى كل مرة 1: 5 حتى ولو كررت المحاولـة آلاف المرات. ويصف الرياضيون هذا النوع مـن العلاقة بين المحاولات المتكررة بأنها «**وقائع مستقلة** Independent events» **أى محاولات لا يؤثر بعضها فى بعض.**

أما إذا كنت بعد أن تُخرج الكرة غير الحمراء تقوم بالتخلص منها قبل معاودة المحاولة، فإن الفرصـة لخـروج الكرة الحمراء فى أول محاولة تكون 1 : 5، وفى المحاولة الثانية (بعد التخلص من أول الكرات) تكون 1 : 4 ثم 1 : 3 وهكذا، ويصف الرياضيون هذا النوع من المحاولات بأنها «**وقائع متنافية** Mutually Exclusive» أى **محاولات ذات تأثير متبادَل فيما بينها.**

فى ضوء هذا الفهم، نعود إلى محاولات القرد/ كمبيوتر دوكنز أن يكتب جملة «أظنها تشـبه ابن عُرس ME Think it is like a weasel»:

يخبرنا دوكنز أن فرصة القرد لكتابة هذه الجملة بالصدفة تُقَدَّر بما يقرب من واحد إلى عشرة آلاف مليون مليون مليون مليون مليون أى (10^{40}). ولكنه يضيف: **ولو اسـتطعنا حشد 10^{40} قرد لكل واحد منهم آلته الكاتبة فإن أحدهم «ولا شك» سيكتب الجملة المطلوبة!!.**

لقد فات دوكنز أن محاولات القِـرَدة تخضـع للنوع الأول من الاحتمالات «**الوقائع المسـتقلة** Independent events». ولكن دوكنز يعتبرهـا من النـوع الثانـى «**وقائـع متنافيـة** Mutually exclusive» إذ يؤكد أن أحد هذه القرود سيكتب «**ولا شك**» هذه الجملة !، وهذا لا يحدث إلّا **إذا اسـتطاع دوكنز إلزام كل قرد بألا يكرر ما كتبته القرود الأخرى،** واسـتطاع كذلك **إلزام كل قرد ألا يكرر ما كتبه فى مرة سـابقة** (ولا أظنه يسـتطيع)، **لذلك فسـتظل فرصة كل قرد فى كل محاولة واحد إلى 10^{40} ولو زاد عدد القرود ببلايين المرات.**

ومما يؤكد **عدم فهم دوكنز لنظرية الاحتمالات** قوله: إنك لو **عبرت الطريق يوميًّا** لمدة نصف مليون سـنة «**فمما لا شـك فيه**» أن سيارة ستُدهسك فى إحدى هذه المرات. إن هذه الحتمية «**لا**

شك» مغرقة فى الخطأ. إن فرصة أن تُدهَس ستظل هى هى فى كل مرة ولو عبرت الطريق عشرات الملايين من السنين. فالوقائع هنا ـ كما فى مثال القرود ـ مستقلة وليست متنافية.

من تحليلنا للمغالطات الجوهرية فى تجربة القرد/ الكمبيوتر التى أجراها دوكنز، نجد أن **التجربة تخالف أساسيات التطور الدارويني**، ففيها **ثلاث خطوات تحتاج لعقل ذكى**، وهى:

1- وجود **هدف محدد** (الجملة الهدف) من البداية يسعى الكمبيوتر للوصول إليه.

2- فى كل خطوة يقوم الكمبيوتر **بمقارنة البدائل بالجملة الهدف**.

3- يقوم الكمبيوتر **بالاحتفاظ بأقرب النتائج للهدف** واستبعاد النتائج الأخرى.

ألا يجعل ذلك من التطور «**تطورًا موجهًا**»؟

إن هذه العوائق تجعل من مثال دوكنز **دليلًا فاسدًا تمامًا**، يتم فيه (فبركة!) الآليات للحصول على ما نريد إثباته، وهو ما يُعرف **بالبرهان الدائرى** Circular proof.

ويؤكد ديڤيد بيرلنسكى هذا المعنى قائلًا: «إن المعلومات الموجودة فى **مخرجات** آلية الانتخاب الطبيعى التراكمى (كما طرحها دوكنز) **كانت موجودة فى المدخلات**، وهى جملة هدف تم تحديدها مسبقًا من بين حروف الأبجدية، وقامت الآليات الموجهة الذكية باكتشافها من بين الحروف والمحافظة عليها ومراكمتها. إن ذلك يثبت أن **ليس هناك انتخاب تراكمى دون آلية ذكية**.

ولتخفيف وطأة ما فى المثال السابق من تحايل صارخ، **يعترف دوكنز أن مثاله غير دقيق**، للأسباب الثلاثة التى ذكرناها، ويدعى أنه يمكن تعديل المثال لتفادى هذه النقاط (لو كان ذلك ممكنًا لأجرى التعديل قبل نشر الكتاب). إن دوكنز باعترافه هذا **يثبت أهمية وحتمية وجود الذكاء فى المنظومة**، وهو ما سعى دوكنز لنفيه بمثاله هذا.

الانتخاب التراكمى والتعقيد غير القابل للاختزال

لا يكتفى دوكنز بما مارس فى المثال السابق من تلفيق، بل يدعى أن آلية الانتخاب الطبيعى التراكمى قادرة على دحض **مفهوم التعقيد غير القابل للاختزال**[1] الذى طرحه مايكل بيهى، والذى يُعد ضربة قاصمة للتطور الدارويني.

(1) عرضناه بالتفصيل فى الفصل السابع.

للرد على بيهى، يفكك دوكنز بأسلوبه المخادع القضية إلى خطوات قد تخِيل على البعض:

1) اعتـبر أن عدد الخطوات المطلوبة **لتحويل كائن لا عين له إلى كائن ذى عين مبصرة** هو (س).

2) اعتبر أن عـدد الخطوات المطلوبة لهذا التحويل كبيرًا جدًّا، وأن كل خطوة تختلف عن سابقتها بقدر ضئيل جدًّا، بحيث يمكن أن تقع كل خطوة بالصدفة.

3) أليس من الممكن أن تحقق كل خطوة إبصارًا أفضل من سـابقتها يعين على تكاثر وبقاء الكائن، مما يسمح للخطوة التالية بالحدوث؟

يتخيـل دوكنز أن أسـلوبه هذا قادر عـلى اختزال أى تعقيد إلى خطـوات يمكن أن تحدث بالتطور الداروينى. فى هذا المثال وقع دوكنز فى خطأ مُخجل، فعندما أُعترض على تصوره السابق بأن فى المرحلة التى يوجد فيها 5% من عين فإن هذا التكوين لن يبصر على الإطلاق، ومن ثم لن يعين على التكاثر بأى قدر يسـمح بتوارثه واقترابه من العين المبصرة، عندها أجاب دوكنز أن عينًا نشأت بنسبة 5 % يمكن أن تقدم للحيوان إبصارًا قدره 5 %، مما يعينه على التكاثر ومن ثم التطور! لقد فات دوكنز أن لا **5 % ولا 50 % ولا 80 % من العين يمكن أن تبصر بتاتًا**.

ونختم وقفتنا مع مفهوم الانتخاب الطبيعى التراكمى بمثال شاع استخدامه ولم يفقد دلالته ونَضْرَته، يقول البروفيسور «إيدوين كونكلين [1]»: «إن القول بأن الحياة وُجدت نتيجة حادث تلقائى، شبيه فى مغزاه بأن نتوقع **إعداد مُعجم ضخم** من الحروف التى تناثرت نتيجة انفجار يقع بالصدفة فى مطبعة».

عالم دوكنز الأخلاقى

يتبـنى المنظور الإسـلامى (والديـنى بصفة عامـة) أن **منظومة الإنسـان الأخلاقية منظومة فطرية**، يقوم الدين بتعميق وتفصيل ما فيها من مفاهيم الصواب والخطأ، وإخبار الإنسـان بما ينبـنى عليها من ثواب وعقاب[2]. وأرى أن **اتباع بعـض الملاحدة لمكارم الأخلاق** يرجع جزئيًّا

(1) Edwin Conklin: (1863 – 1952)، عمل أسـتاذًا للبيولوجيا وعلم الحيوان بجامعات أوهايو وبنسلفانيا. وكان رئيسًا للاتحاد الأمريكى لتقدم العلوم، ورئيسًا للجمعية الأمريكية للعلوم الطبيعية.

(2) لتأكيد أن الدين يتمم منظومة الأخلاق الفطرية، يقول الرسول ﷺ: «إنما بُعثت «**لأُتمم**» مكارم الأخلاق».

إلى **فطرية** هذه المفاهيم، وأيضًا إلى ما ترسخ فى نفوس البشر من أخلاق صارت بمثابة **العُرف**، بعد أن أَصَّلَتها الديانات عبر الأزمان السابقة.

الداروينية وراء أخلاق الإله وأنبيائه!!

فى كتاب وهم الإله، يتصدى ريتشارد دوكنز فى الفصلين الخامس والسادس لإثبات **مفهوم النشأة التطورية للديانات**، ويجتهد فى **قطع علاقة الأخلاق بالدين والفطرة**، ويروج للقول بأنها مكتسبة، قام الانتخاب الطبيعى بدعمها فى النفس البشرية.

ويصف دوكنز الإله كما يعرضه العهد القديم بأسوأ الصفات؛ فهو «تافه حقير petty، ظالم Unjust، غير متسامح، متنمر حقود، مُهلك محب للدماء والإبادة الجماعية، يكره البشر ويكره النساء، قاتل للأطفال، تحكمه الشهوات، عنصرى يمارس التصفيات العرقية، يحكمه جنون العظمة، سادى ماسوشيستى، غيور، وفى نفس الوقت يباهى بذلك كله. لذلك لم يكن غريبًا أن يختار أنبياءه على تلك الصفات السيئة الدنية»[1].

ويعتبر دوكنز أن تلك الصفات المنحطة للإله وأنبيائه (كما جاءت فى العهد القديم) **تتطابق تمامًا مع الأخلاق التى يفرزها التطور**، وتنسجم مع الصراع من أجل البقاء والمحافظة على الجينات (الجين الأنانى)، ومن ثم لا ينبغى العتب على بنى إسرائيل وأنبيائهم لأنهم تصرفوا كآلات جينية تسعى لمصلحتها تبعًا للحتمية الجينية.

---

(1) عن كتاب The God Delusion, P.31. وللاستدلال على اتصاف الإله بتلك الأخلاق ينتقى دوكنز من العهد القديم بعض المشاهد التى تشينه وتشين أنبياءه:

- لوط يعرض بنتيه على رجال سادوم الذين أرادوا اغتصاب ضيوفه. سفر التكوين 19: 11-4
- لوط يغشى بناته فيحملن منه. سفر التكوين 19: 38-30
- أوشك إبراهيم أن يذبح ابنه إسحق. سفر التكوين 22: 19-1
- ذبح موسى 3000 إسرائيلى بعد أن صنعوا العجل الذهبى عندما كان منشغلًا باستلام الوصايا العشر من الإله فوق جبل سيناء. سفر الخروج 32: 25 - 29
- النبى يشوع يقتل كل سكان أريحا. سفر يشوع 6: 21
- الإله يشعل الحرب المقدسة فى كنعان. سفر التثنية 20: 10 - 18

فى المثلين الأخيرين يُشَبه دوكنز الإله بهتلر فى غزوة لبولندا، وبصدام حسين وإبادته للأكراد، ويبرر بذلك إبادة اليهود للفلسطينيين لاسترداد الأرض الموعودة.

من أين ينبغى أن نستمد أخلاقنا؟

بالرغم من أن دوكنز يُرجع نشأة القيم الأخلاقية إلى التطور، فإنه **يرفض أن تكون أخلاق التطور هى مرجعيتنا**، ويكرر هذا المعنى فى كتاباته كثيرًا. انظر إلى قوله: إن التطور الداروينى **لا يُنتج إلا أمثال هتلر**، والمجتمع الداروينى لا يكون إلا **مجتمعًا فاشستى** ينتشر فيه التعصب العنصرى والتصفية العرقية. لذلك يضيف (فى كتاب الجين الأنانى)[1]: **لا أتحمس للأخلاق التى أنشأها التطور**، فإذا كنا قد ولدنا أنانيين، فعلينا إذا أردنا أن نحيا فى مجتمع يتعاون أفراده لتحقيق أهدافٍ سامية ألا نتوقع مساعدة من طبيعتنا البيولوجية، ومن ثم **علينا أن نُعَلِّم أبناءنا الكرم والإيثار**.

وفى نفس الوقت يرفض دوكنز أن نربى أبناءنا تربية دينية، ويعتبرها نوعًا من **سوء استعمال الأطفال** Child abuse، إذ تزرع فى عقولهم مفاهيم خاطئة دون أن يكون لهم القدرة على مناقشتها والاعتراض عليها، مما يقضى على حرية اختيارهم عندما يكبرون. ويتمادى دوكنز فى ذلك ويقول: «إذا كان اغتصاب رجال الكهنوت للأطفال أمرًا مستهجنًا، فإن الأسوأ منه تحطيمهم نفسيًّا بجعلهم يحيون حياتهم كلها فى خوف ورعب من النار». ونحن قد نوافق دوكنز على ما يقول بدعوى أن نترك لأبنائنا حرية الاختيار عندما يكبرون! بشرط أن يكف المجتمع عن بث مفاهيم الإلحاد فهم حتى ينشئوا متوازنين. أليس كذلك يا دوكنز؟!

يوقع هذا الطرح دوكنز فى **موقف متضارب شديد الغرابة**. فهو يرى أن القيم الأخلاقية ليس لها مصدر سماوى سواء من الفطرة أو من الدين، وفى نفس الوقت يرى أنه لا ينبغى أن نستمد قيمنا من الطبيعة، فهى لا تقدم إلا الصراع! **فمن أين إذًا نستوحى القيم التى ينصحنا باتباعها**؟ يقدم دوكنز طرحًا غريبًا للخروج من هذا المأذق:

فى صحوة أخلاقية، يؤكد دوكنز أننا لا ينبغى أن نستمد أخلاقنا من مفاهيم الصراع الداروينى كما وردت فى كتب أصل الأنواع وأصل الإنسان والجين الأنانى والعهد القديم! بل علينا أن نتأمل هذه الكتب **لنختار منها المفاهيم الحسنة** Nice لنتخلق بها وندع الباقى. السؤال هنا: ما هو مقياسنا للمفهوم الحسن؟

(1) The Selfish Gene, P. 2,3.

ليحدد مقاييس هذا الحُسن ينتقل بنا دوكنز إلى «**العهد الجديد**»، ويقول: «لقد **كان المسيح من أعظم مصلحي التاريخ**، وقد كان متدينًا[1]. لقد رفض إله اليهود (يهودا) القاسى المخادع، وطرح بدلًا منه **إلهًا حسنًا ظريفًا لطيفًا**، فلم يكن غريبًا أنهم صلبوه»[2]. وفى موقع آخر يقول دوكنز: «لقد رفض المسيح أن يستمد قيمه من البيئة اليهودية التى نشأ فيها (بيئة العهد القديم)، بل ونهى عن ذلك، وبذلك أصبح **مثالًا للتدين الحق**»[3].

ونحن نسأل دوكنز: **من أين استمد المسيح قيمه ومرجعيته وأخلاقه؟** لا شك أن مصدرها لم يكن الانتخاب الطبيعى، تلك العملية البذيئة الرديئة المؤذية Deeply nasty (هكذا يصفها دوكنز)، والتى وصفها دارون بأنها عمل شيطانى تقوم به الطبيعة القاسية عديمة الرحمة، التى لا تراعى إلا الأقوياء والشرسين.

تمسكًا بالدارونية، وتهربًا من الإقرار بأن أخلاق اللطف والظرف والحُسن ـ التى يدعو إليها المسيح ـ سماوية المصدر، يخبرنا دوكنز **بأن الانتخاب الطبيعى أفرز (كيف؟ لا ندرى) عددًا من القيم بالغة اللطف** Supernice (كالإيثار والكرم والتعاطف والشفقة والحنو) ليتعامل بها أفراد المجموعة الواحدة **لتعينهم على البقاء**، مع عدم التخلى عن قيم الصراع فى التعامل مع الآخرين. وبالرغم من أن الطبيعة تعتبر الأخلاق بالغة اللطف سفه وسخف، فإن علينا أن **نتحراها ونقطفها** Picks and chooses وأن ندع الأخلاق الدنية البذيئة.

وإذا أردنا أن نكون واسعى الصدر مع دوكنز إلى أقصى حد، وقَبِلْنا تمييزه للأخلاق إلى نوعين، **أخلاق لطيفة** للتعامل مع المقربين **وعداء** نتعامل به مع المنافسين، فكيف نفسر وجود مفاهيم أخلاقية حسنة تمارسها الكائنات تجاه كائنات من أنواع أخرى (كحنو الإنسان على الحيوان)، وهو ما يُعرف بـ«**عالمية الأخلاق** Universal»، مما يتعارض مع التطور؟ لم يكن السؤال مباغتًا لدوكنز، فقد أجاب من فوره بأن عالمية الأخلاق «**خطأ تطورى** Evolutionary Misfiring» أى نيران صديقة، بلغة العصر!

(1) يقول دوكنز: فى الحقيقة لم يكن المسيح يملك إلا أن يكون متدينًا، فلم يكن أحد فى زمانه يملك حرية أن يكون ملحدًا، خشية بطش اليهود!

(2) من مقال بعنوان Atheists for Jesus

(3) The God Delusion, P. 250

الإناء ينضح بما فيه

ذكرنا منذ قليل أن بعض الملاحدة يتمسكون بالقيم الفاضلة التى يتمسك بها المتدينون، وفسرنا ذلك التشابه بالفطرة وبالعرف المستمد من الدين. أما دوكنز فيُرجع هذا التشابه إلى أن **الإنسان جنس واحد يخضع لنفس الظروف التطورية**[1]، وهذا خطأ علمى كبير، فظروف الإنسان التطورية متباينة أشد التباين.

وبالرغم من بعض «**التشابه الأخلاقى الظاهرى**» بين الملاحدة والمتدينين، فإن هناك «**تباينًا عميقًا**» فى المنظومة الأخلاقية لكل منهما، حتى إن دوكنز نفسه يقر بأن **كونًا يتربع على عرشه إله يختلف تمامًا عن كون ليس به إله**!. ويقف وراء هذا التباين الأخلاقى العميق **نظرة كل منهما للذات الإنسانية**، فلا شك أن التوابع الأخلاقية لمنظومة تعتبر **الإنسان حيوانًا ليس إلا**، تختلف جذريًّا عن منظومة تعتبره **خليفة من الله** عَزَّوَجَلَّ **فى الأرض** وأنه خُلق على صورة الإله. فلنتأمل بعض الانعكاسات الأخلاقية لهذا التباين:

الإجهاض

ترفض الديانات السماوية الإجهاض باعتباره قتلًا للنفس التى حرم الله قتلها[2]، وإذا كان دوكنز يتفق مع الديانات فى تحريم القتل، فإنه يمزق هذه القاعدة بسهولة إذا جاء إلى الإجهاض.

فدوكنز يتبنى أنه **لا ينبغى أن ننظر إلى الجنين البشرى كإنسان**! بل كتجمع من الخلايا، المهم أن نعرف فى أى مرحلة يبدأ الجنين فى الإحساس والمعاناة، حتى نعرف ما يعانيه إذا تم إجهاضه[3]. ويعقد دوكنز مقارنة توضح موقفه فيقول: «إن حيوانًا بالغًا يعانى الألم أكثر مما يعانيه جنين إنسان داخل الرحم أو طفل مولود حديثًا، كذلك ليس هناك سبب أخلاقى للحرص على الإنسان بشكل خاص، فمن يعانى أكثر هو الأهم». أى أن **الإنسان ينبغى ألا يُفَضَّل على الحيوان البالغ**.

ويثنى دوكنز[4] على آراء الفيلسوف التطورى الملحد بيتر سنجر Peter Singer[5]، الذى يتبنى

(1) The God Delusion, P. 271

(2) وضع الإسلام ضوابط للإجهاض، وحرمته المسيحية تمامًا باعتبار أن الله قد خلق الإنسان على صورته.

(3) 298 - The God Delusion, P. 297

(4) The God Delusion, P. 271

(5) Practical Ethics, Cambridge University Press 1979, P 261 - 373

أن المنظور الأخلاقى يحتم المعاملة المتماثلة لجميع الأجناس ذات القدرات المخية المتطورة، أى أن **الإنسان ينبغى معاملته مثل باقى الحيوانات**[1].

مـن ذلـك نرى أن **المنطلقـات الفكرية الأخلاقيـة لدوكنز** لا تقف عنـد تطورية دارون، بـل تشـمل مذهـب المنفعة لجون سـتيوارت مـل[2]، الـذى يؤكـد أن مذهبه تجديد للمدرسـة الأبيقوريـة[3] القديمة التى ترى أن الأخلاق لا تنطلق من مفاهيم إنسـانية مشـتركة، لكن من قدرتها على زيادة المتعة واللذة وتقليل الألم.

قتل الرحمة

مـن نفـس منطلقـات إباحـة الإجهـاض، يتحمـس دوكنز لما يُعـرف بـ«قتل الرحمة Euthanasia» الذى ترفضه الديانات السماوية. فيرى أنه من المقبول أخلاقيًّا أن **يتخذ الإنسان قرارًا بإنهاء حياته** للتخلص من المعاناة. والمشـكلة الأكبر أن ذلك يؤدى إلى الموافقة على اتخاذ الأقارب **قرارات بإنهاء حياة الآخرين** من المسـنين والمرضى والأطفال المعاقين، وهذا ما حدث بالفعل فى قانون صدر فى نيوزيلاندا Netherland.

أكل لحوم البشر

مـن وجهة النظر التطورية، لا يوجد مبرر يمنـع أكل لحوم البشر Cannibalism! **فالتطور لا يعرف الصواب والخطأ فى المفاهيم الأخلاقية**، لكنه قد يفسر نشأتها. كذلك فإن قيم الحرية واللطف لا تمنع **الاسـتفادة من لحم الإنسان فى جميع الأغراض**، خاصة أن أكل لحوم البشر يحل الكثير من مشـكلات نقص الغذاء فى المجتمعات الفقيرة، ويحل كذلك مشـكلات التخلص من الجثامين!. ويُرجع دوكنز عزوف الأسود عن أن تأكل بعضها بعضًا إلى أن ذلك لن يكون مفيدًا تطوريًّا، بل يمكن أن يهدد بقاء الجنس إذا تبنت كل الأسـود نفس السلوك[4]. ونحن ندفع هذا

(1) لذلـك يَجُوِّز سـنجر قتل الأطفال المولوديـن حديثًا إذا لم يرغب والداهم فى الاحتفاظ بهـم، ولذلك أيضًا يوافق على قتل النازيين للضعفاء والعاجزين، فكهذا نُعامل الحيوانات التى تعانى نفس المشكلات. ومن المفارقة أن ينشر سنجر دراسة يؤكد فيها أن المتدينين والملاحدة يتمسكون بنفس المفاهيم الأخلاقية!!

(2) John Stuart Mill: (1806 - 1873)، فيلسوف واقتصادى بريطانى كبير. أحد كبار الفلسفة النفعية.

(3) مذهب يُنسـب إلى أبيقور (340 - 270 ق.م)، يقوم على أن اللذة هى هدف الإنسـان فى حياته، تبدأ باللذة الجنسـية وتصل إلى اللذة العقلية.

(4) The Selfish gene, P. 83.

المنطق بأن هناك فائدة محققة إذا أكلت الأسود جثث بنى جنسها، وليس أقرانها الأحياء لكن ذلك لا يحدث! كذلك إذا كان أكل لحوم البشر من نفس المجموعة البشرية ضار تطوريًّا فإنه بلا شك مفيد بالنسبة للحوم الأعداء!

تشابهت الأسماء واختلفت المسميات

يتضح مما سبق أن هناك تباينًا عميقًا فى المفاهيم الأخلاقية للملاحدة والمتدينين، وإن اتفقت فى الأسماء. فخُلق كـ«**الرحمة** Kindness» الذى يعنى عند المتدينين الرعاية الكاملة للضعفاء والمرضى والمحتضرين، يعنى عند دوكنز معاملة الإنسان كالحيوان تمامًا! إذ يوافق على الإجهاض دون ضوابط كما يوافق على قتل الرحمة.

وإذا جئنا إلى خُلق «**الكرم** Generosity» وعلاقته بالحمل غير المرغوب فيه، وجدنا المتدينين يهتمون برعاية الأمهات الحوامل والأطفال غير المرغوب فيهم، أما دوكنز وأمثاله فيهتمون بتوفير الإجهاض كخدمة مجانية.

من هذين المثلين، يتضح أن التشابه الخُلُقى بين المتدينين والملاحدة هو تشابه لفظى فى المقام الأول، أما **من الناحية الفعلية فهما مختلفان تمامًا وربما متضادان**، ولا شك أن ذلك أمر طبيعى يرجع إلى الاختلاف فى النظرة لطبيعة الإنسان.

أخيرًا نسأل؛ هل كان دوكنز محقًا حين قال: على المتدينين ألا يخشوا من المخرجات الأخلاقية للتطور؟

القارئ الكريم...

يقوم مذهب دوكنز الفلسفى على ثلاث دعائم؛ «**التعارض**» بين الإله وبين قوانين الطبيعة، ومن ثم ينبغى أن نختار أحدهما كمنشىء للكون والكائنات. والدعامة الثانية «**المماثلة**»؛ فدوكنز ينظر إلى الإله باعتباره سوبرمان عليه أن يسلك مثل البشر، لذلك يحاسبه دوكنز حسابًا عسيرًا إذا سلك على غير ما يتوقع!. وأخيرًا «**الاحتمالية**»، واعتمادًا عليها يبنى دوكنز الكون والحياة بالعشوائية والصدفة، وبنفس الدعامة ـ الاحتمالية ـ يستبعد دوكنز أن يكون الإله قد قام بعملية الخلق!

إن دوكنز بهذا المنهج الفلسفى **يضع ما يشاء من نتائج كمقدمات ينطلق منها، وهو منهج سفسطائى شيطانى** يمثل سياجًا حديديًّا يحمى العقيدة الإلحادية، وقد كان دوكنز أول ضحايا هذا المنهج.

وينطلق دوكنز فى رفضه للإله الحق من البحث الصبيانى عن **سبب السبب الأول الذى أوجد كل شىء**. وفى نفس الوقت يتبنى دوكنز **«الاحتمالية والصدفة» كإله بديل** يفسر به كل شىء. ويغيب عن دوكنز أن **الاحتمالية الرياضية لا تعنى الإمكانية الفعلية**، كما يغيب عنه أن الصدفة ليست سببًا أوليًّا بل هى تعبير عن العلاقات بين الأسباب الحقيقية، ومن ثم **فالصدفة «لاشىء»** كما قال أرسطو.

وللخروج من مأزق الاستحالة الفعلية لأن يكون الانتخاب الطبيعى قد قام بعملية التطور البيولوجى، طرح دوكنز فرضية أسماها **الانتخاب الطبيعى التراكمى**، واستشهد عليها بأمثلة تفضح جهله بالمنطق والرياضيات بل وبالمنهج العلمى، ولا نريد أن نزيد ونقول إنها تفضح سوء نيته.

وعند معالجته لنشأة **المنظومة الأخلاقية** للإنسان يقع دوكنز فى تعارض مخجل، فهو يؤكد أن هذه المنظومة قد نشأت بالتطور الداروينى الذى لا يفرز إلا الوحشية والدناءة، وفى نفس الوقت يرى أن جوهرها مجموعة من الأخلاق الحسنة التى نشأت نتيجة لأخطاء تطورية! وأن علينا أن نُنَشِّىء أبناءنا على هذه **الأخطاء الحسنة**، ونحن نسأله؛ **ألا يؤدى معاندة قوانين الطبيعة إلى فناء الجنس البشرى**؟!

ولم تقف سوءات دوكنز عند عجزه الفلسفى وضعف استدلالاته العلمية، بل إنه يستخدم أسلوبًا وقحًا متدنيًا جعل **أقرانه من الملاحدة** يَنْفَضُّون من حوله ويصفونه بأنه **مجرد ملحد هاوٍ سفسطائى مبتدء، مزيف للحقائق، يبدو كشخص ملأه الغرور والزهو بعد أن أفرط فى شرب الخمر، فأخذ يبعثر سبابه الحاقد على من لا يشاركونه الرأى.**

❐❐❐